ISBN 978-1-4051-8898-5

AUB LIBRARY

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

A.U.B. LIBRARY

923.6581
A257qaf

قدري قلعجي

جمال الدين الافغاني

حكيم الشرق

اعلام الحرية
٥

LIBRARY
OF DEARBORN

دار العلم للملايين
آذار ١٩٤٧

« ان تاريخ السيد جمـــال الدين هو تاريخ المسألة الشرقية كلها في الازمان الحديثة . »

برادو

« ... انه في تاريخ الشرق الحديث اول داع الى الحرية واول شهيد في سبيلها . »

مصطفى عبد الرازق

« تعرفت بالشيخ جمال الدين فوقع في نفسي منه ما لم يقع لي الا من القليلين ، واثر فيّ تأثيراً قوياً ، وقد خيل اليّ من حرية فكره ونبالة شيمته وصراحته واني اتحدث اليه اني ارى احد معارفي من القدماء وجهاً لوجه ، وأني أشهد ابن سينا او ابن رشد ... »

رنانه

« ... وبالجملة فاني لو قلت ان ما آتاه الله من قوة الذهن وسعة العقل ونفوذ البصيرة ، هو اقصى ما قُدر لغير الانبياء لكنت غير مبالغ . »

محمد عبده

« قابلت السيد جمال الدين المتحدر من سلالة النبي والمعدود هو ايضاً نبياً ... وقد شعرت نحوه بعاطفة الحب التي اجدها تربطني بكل داع الى ثورة او مقاوم لاستبداد . »

هنري روشفور

« الذل وصحيح العلم ضدان لا يجتمعان »

جمال الدين الافغاني

رسول حق ونور

•

مرت على الشرق بعد عنفوان مجده ، أزمان عاش خلالها في ظلام حالك وظلم مطبق ، حتى غدا نهبة لكل ناهب ومطمعاً لكل غاصب . وكانت النقمة على هذه الحياة الخاملة التي تتوارثها الأجيال المتعاقبة ، تبدو بين حين وآخر في انتفاضات واعية او غير واعية ، في تمرد جيل من الفلاحين في الصين ، او في ثورة مخفقة في البلاد الروسية ، او في حرب عصابات يشنها امير هندي على المستعمرين ، او في جمعية سرية تحاول قلب العرش العثماني ...

وفي غضون القرن التاسع عشر بدأت هذه النقمة تتضح في بلاد الشرق ، وتتجلى في تباشير نهضة اجتماعية عامة هي وليدة ما احاط باهله من استبداد ، وما طغى عليهم من مظالم دفعتهم للطموح الى حياة أرقى. وكان طبيعياً ان تنجب هذه النهضة عدداً من القادة المصلحين والمفكرين الثائرين ، كالسيد جمال الدين الأفغاني الحسيني ، فان ظهور الشخصيات القائدة في التاريخ مرتبط بالنهضات الاجتماعية ذات الأثر الحاسم في توجيه الحياة ، اذ تحفز الثورة على الواقع الجائر نفراً من المفكرين الواعين الى السير معها ، وتعبيد طريقها ، وسن شرائعها ، والانتصار للجماعات الثائرة التي

كان يقع عليها الجور حتى تنال حريتها وتظفر ببغيتها .

وقد عاش جمال الدين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وبلاد الشرق تفتك بها عوامل الجهل والتفرقة والاستبداد ، لكنها تتطلع رغم ذلك الى آفاق الحرية والنور ، فتنقل فيها يدعوها الى العلم والاتحاد والحرية والشورى ، اي الى القوة التي تحطم بها مظالم المستبدين وتصد اطماع الفاتحين ، فكان الحكيم الذي تمخضت به وافرغت فيه نورها ليعمل على توجيه نهضتها الاجتماعية ومكافحة الاستعمار الذي يهددها كأعظم ما يكافحه مفكر مؤمن بهدفه مخلص له لا يفتر في طلبه ولا ينثني عنه :

« لقد جمعت ما تفرق من الفكر ، ولمست شعث التصور ، ونظرت الى الشرق واهله ، فاستوقفتني الافغان وهي أول أرض مس جسمي ترابها ، ثم الهند وفيها تثقف عقلي ، فايران بحكم الجوار والروابط ، فجزيرة العرب : من حجاز هو مهبط الوحي ، ومن يمن وتبابعتها ، ونجد ، والعراق ، وبغداد وهارونها ومأمونها ، والشام ودهاة الأمويين فيها ، والاندلس وحمرائها ، وهكذا كل صقع ودولة من دول الاسلام وما آل اليه أمرهم . فالشرق ... الشرق ! لقد خصصت جهاز دماغي لتشخيص دائه وتحري دوائه ، فوجدت اقتل ادوائه داء انقسام اهله ، وتشتت آرائهم ، واختلافهم على الاتحاد واتحادهم على الاختلاف ، فقد اتفقوا على ان لا يتفقوا ! فعملت على توحيد كلمتهم وتنبيههم الى الخطر الغربي المحدق بهم والآخذ بخناقهم ... »

" كان السيد جمال الدين حكيماً بمعنى الحكمة التي تنفع الناس بما تبين لهم من اسباب الانحطاط والرقي ، وبما تصف لهم من وسائل النهوض الى ما ينشدون . فهو لم يتم عملاً كبيراً ، ولا ألف كتاباً خطيراً ، لكن رسالته وتعاليمه لم تضع ولن تضيع ، ولسنا نغالي اذا قلنا ان الحركات الاصلاحية والانتفاضات الثورية التي تعاقبت في بلاد العرب والترك والفرس والأفغان ، في اواخر القرن الماضي واوائل القرن العشرين ، كان فيها جميعاً قبس من رسالته وأثارة من روحه" . فقد كانت له يد طولى في تعهد الجيل الذي بنى النهضة الحديثة في تلك الأقطار ، وقلّ بين اعلام هذه النهضة من لم يأخذ عنه او عن احد تلامذته طرفاً مما اوتي من سعة العقل وجرأة القلب وصلابة العقيدة وحرية الضمير .

ولو اردنا ان نضرب على رسالته الامثال ، لاكتفينا بان نشير الى ان عمل محمد عبده في الميدان الثقافي ، وعمل سعد زغلول في الميدان السياسي ، ليسا إلا ناحيتين غير منفصلتين من رسالته الجامعة .

وكان السيد ، طاب ثراه ، يجمع في نفسه الأضداد ، فهو حليم النفس طيب القلب حيناً ، وهو حاد الطبع عصبي المزاج في بعض الأحيان . وهو بسيط متواضع مع من بدانيه ، لكنه فخور متكبر مع الملوك والعظماء . وهو متسامح كريم اللسان والخلق ، لكنه متعصب لآرائه يكاد يلتهب حماسة لها وغيرة عليها . ومن ابرز صفاته انه كان ينشد الحق ولا يريد بلوغه إلا عن طريق الحق ، فهو لا

يصانع من اجله ولا يلين فيه ولا يفرق في طلبه بين وسيلة وغاية ، حتى اجمع اصحابه على ان هذه الخلة الحميدة من خلاله كانت كثيراً ما تحول دون نجاحه وتؤلب خصومه عليه ، وتوفر لهؤلاء الخصوم ذرائع لمهاجمته والطعن فيه .

وقد بلغ من صراحة الرأي وحرية التفكير حداً جعل عقيدته الدينية موضع جدل لدى بعض الباحثين . فما هي الدعوة الدينية التي نادى بها فاثارت جدل هؤلاء الباحثين وألبت عليه اولئك الخصوم ؟

دعوة الى الاصلاح والتجديد في الدين

كان جمال الدين الافغاني يقول بالمساواة بين البشر والعمل لخير النوع الانساني . وكان يحارب التفرقة الدينية ، ويرى ان الاديان الثلاثة على تمام الاتفاق في المبدأ والغاية ، ويتمنى لو يتحد اهلها مثلما اتحدت هي في جوهرها وهدفها ، فيخطو البشر بهذا الاتحاد خطوة كبيرة نحو السلام .

قال : « سألني أحد نواب الهند عن اشياء يعتبرها شبهات ، كادت ان تخل في عقيدته الدينية ، وتريبه في انزال الكتاب ، اهمها : اذا كان القرآن كلام الله وقوله « ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » حقاً ، فلم كان الاسلام في هذا العصر في اعظم دركات التقهقر والانحطاط ، وعلى خلاف صراحة الآية ؟ واطال في القول حتى اذا انتهى قلت له : اعلم ان كل دين يجب ان يكون حقاً . فالاسلام اسم ومسماه الحق . فلو اتاك رجل اسمه عالم وهو في حقيقته جاهل ، هل تنكر لمجرد الاسم وعدم انطباقه ، فضل المسمى ، وتقول لان اسم هذا الرجل عالم وهو جاهل ، اذاً لا فضيلة للعلم ؟ ولو اتتك الملايين باسم الاسلام ، كما هو الحال في هذا العصر ، وهم لم يقوموا بحق المسمى من الحق ، هل ينبغي لمجرد

مخالفة الاسم ، ان ينكر فضل المسمى، وهو حقيقة الاسلام ؟ كلا. لذلك قال الله تعالى : « ودين الحق ليظهره ... » ولم يقل : ومن تسمى بدين الاسلام ليظهره ! عـــلى ان الاسلام ومن دان به من المسلمين لما عملوا بحق الدين ظهر واظهوراً طبّق الارض نوراً وملأها عدلا . فالظهور للحق وللحقيقة ، وليس للاسلام اسماً مجرداً . وما تراه اليوم في المسلمين من التقهقر ليس من حقيقة دين الاسلام ، بل من جهل المسلمين حقيقة الدين . وفي هذه الآية « ودين الحق ليظهره على الدين كله » ما يفهمنا ان هنـاك بعضاً من كل . فالاديان في مجموعها هي الكل ، واجزاؤها الموسوية والعيسوية والاسلام . فمن كان من هذه الاديان كلهـا على الحق فهو الذي يتم له الظهور والغلبة . لان الظهور الموعود به الدين ، انمـا هو دين الحق كما قلنا ، وليس دين اليهود ، ولا النصارى ، ولا الاسلام ، اذا بقوا اسماء مجردة ، ولكن من عمل من هؤلاء بالحق فهناك الدين الخالص ، قال الله تعالى: « انا انزلنا اليك الكتاب بالحق ، فاعبد الله مخلصاً له الدين ، ألا لله الدين الخالص » .

وقد انتهى الى الاعتقاد بان الدين قسمان ، قسم عبادات وقسم معاملات ، فالعبادات يؤديها الانسان لربه بمعزل عن كل احد فلا يعارض غيره بها ولا غيره يعارضه ، اذ لكل وجهة هو موليها ، والله رب العالمـــين لا رب اليهود فقط ، ولا النصارى فقط ، ولا المسلمين فقط : هو الذي خلقكم من نفس واحدة . واما المعاملات فهي شرع بين العموم ، يعلم ابناء الطوائف كلها عـلى العمل لخير وطنهم متكاتفين متعاونين . وقد اخذ يحلم بتوحيد الأديان الثلاثة ،

ووضع لنظريته هذه خططاً، وأخذ يدعو اليها ابناء الاديان والفرق المختلفة، فما لبث ان علم آسفاً ان دون هذا الهدف العظيم هوى عميقة يحرص عليها « اولئك المرازبة الذين جعلوا كل فرقة بمنزلة حانوت، وكل طائفة كمنجم من مناجم الذهب والفضة، ورأس مال تلك التجارات ما احدثوه من الاختلافات الدينية والطائفية والمذهبية، على حد قول الشاعر :

قد يفتح المرء حانوتاً لمتجره وقد فتحت لك الحانوت في الدين
صيّرت دينك شاهيناً تصيد به وليس يفلح اصحاب الشواهين

وسرعان ما ادرك : « ان اي رجل يجسر على مقاومة التفرقة ونبذ الاختلاف، واثارة افكار الخلق بلزوم الائتلاف، رجوعاً الى اصول الدين الحقة، فذلك الرجل، هو نفسه، يكون عندهم قاطع ارزاق المتجرين بالدين، وهو نفسه يكون في عرفهم الكافر الجاحد المارق المخرق المهرتق المفرق الخ ...» على ان ذلك لم يثنه لحظة عن مواصلة كفاحه في هذا السبيل.

وبديهي ان الرجل الذي ينكر تفرقة الناس الى يهود ونصارى ومسلمين، ويريد توحيد الاديان الثلاثة، سينكر حتما تفرقة ابناء المذهب الواحد الى شيع شتى، فينكر مثلا انقسام المسلمين الى سنيين وشيعيين، ويسعى الى ازالة سبب الخلاف بينهم، ان كان ثمة سبب جدي للخلاف، لانه لا يعتقد ان هناك في الواقع مثل هذا السبب، بل هو يرى ان الملوك من السنيين هم الذين هوّلوا وعظموا امر الشيعة لاستهواء العوام باوهام غريبة نسبوها الى شيعة اهل البيت كي يتسنى لهم تحزيب الاحزاب وتجييش الجيوش «ليقتل

المسلمون بعضهم بعضاً بحجة الشيعة والسنة وجميعهم يؤمنون بالقرآن وبرسالة محمد صلى الله عليه وعلى آله» وهو يقول : «اما مسألة تفضيل الامام علي ،والانتصار له يوم قتال معاوية ، وخروجه عليه، فلو سلمنا انه كان في ذلك الزمن مفيداً ، او ينتظر من ورائه نفع لاحقاق حق ، او ازهاق باطل ، فاليوم نرى ان بقاء هذه النعرة ، والتمسك بهذه القضية التي مضى امرها وانقضى مع امة قد خلت ، ليس فيها الا محض الضرر ، وتفكيك عرى الوحدة الاسلامية» ثم قال : «لو اجمع اهل السنة اليوم ووافقوا المفضلة من الشعة ، من عرب وعجم ، واقروا وسلموا بأن علي بن ابي طالب كان اولى يتولى الخلافة قبل ابي بكر ، فهل ترتقي بذلك العجم او تتحسن حالة الشيعة ؟ او لو وافقت الشيعة اهل السنة ، بان ابا بكر تولى الخلافة قبل الامام علي بحق ، فهل ينهض ذلك بالمسلمين السنيين وينتشلهم مما وقعوا فيه اليوم من الذل والهوان وعدم حفظ الكيان ؟ أما آن للمسلمين ان ينتبهوا من هذه الغفلة ، ومن هذا الموت قبل الموت ؟ يا قوم ! وعزة الحق ان امير المؤمنين علي بن ابي طالب لا يرضى عن العجم ، ولا عن عموم اهل الشيعة اذا هم قاتلوا اهل السنة أو افترقوا عنهم لمجرد تفضيل عليّ على ابي بكر ، وجميعهم لا يحسنون امر دنياهم ،والناس ابناء ما يحسنون. وكذلك ابوبكر، فلا يرضيه ان تدافع اهل السنة عنه ، وان تقاتل الشيعة لاجل تلك الأفضلية التي مرّ زمانها ، والتي تخالف روح القرآن الآمر ان يكونوا كالبنيان المرصوص .

ويذهب السيد الى اكثر من ذلك فيدعو الى التوفيق بين الدين

والعلم ، بل يرى هذا الامر ضرورة لا بد منها ، فيقول : « ان الدين لا يصح ان يخالف الحقائق العلمية ، فان كان ظاهره المخالفة وجب تأويله » ويقول في مكان آخر : « ... وكيف لا اقول وأسفاه ، واذا نهض احد لتفسير القرآن فلا أراه الا يهيم ببيداء البسملة ويغوص ! ولا يخرج من مخرج حرف صاد الصراط حتى يهوي هو ومن يقرأ ذلك التفسير في هوة عدم الانتفاع بما اشتمل عليه القرآن من المنافع الدنيوية والاخروية ، مع استكماله الامرين على اتم وجوههما .

« عمّ الجهل وتفشى الجمود في كثير من المتردين برداء العلماء حتى تخرصوا على القرآن بانه يخالف الحقائق العلمية الثابتة ، والقرآن بريء مما يقولون .

« اثبت العلم كروية الارض ودورانها ، وثبات الشمس دائرة على محورها . فهذه الحقيقة مع ما يشابهها من الحقائق العلمية لا بد من ان تتوافق مع القرآن ، والقرآن يجب ان يُجَلّ عن مخالفته للعلم الحقيقي ، خصوصاً في الكليات ، فاذا لم نرَ في القرآن ما يوافق صريح العلم والكليات ، اكتفينا بما جاء فيه من الاشارة ، ورجعنا الى التأويل ، اذ لا يمكن ان تأتي العلوم والمخترعات بالقرآن صريحة واضحة ، وهي في زمن التنزيل مجهولة الخلق ، كامنة في الخفاء ، لم تخرج لحيز الوجود . »

وواضح ان جمال الدين اذ يدعو الى تأويل الدين او تفسيره بما يطابق ضرورات العصر الحاضر وروح المدنية الحديثة ، فهو انما يدعو الى الاجتهاد البصير وينفر من التقليد الأعمى لكل ما جاء به

الاقدمون او التمسك الحرفي بكل ما قاله المفسرون . وقد ذكر في مجلسه مرة قول للقاضي عياض تمسك به رواته فقال : « سبحان الله ! ان القاضي عياضاً قال ما قاله على قدر ما وسعه عقله وتناوله فهمه وناسب زمانه ، فهل لا يحق لغيره ان يقول ما هو أقرب للحق وأوجه واصوب من قول القاضي عياض وغيره من الائمة ؟ اذا كان القاضي عياض وامثاله سمحوا لأنفسهم أن يخالفوا أقوال من تقدمهم فاستنبطوا وقالوا ما يتفق وزمانهم ، فلم لا نستنبط ونقول ما يوافق زماننا ؟ »

فقيل له ان مثل هذا القول يحتاج الى الاجتهاد ، وباب الاجتهاد عند أهل السنة مسدود لتعذر شروطه . فتنفس الصعداء وقال :

« ما معنى أن باب الاجتهاد مسدود ؟ ! وبأي نص سد باب الاجتهاد ؟ او أي امام قال : لا ينبغي لأحد من المسلمين بعدي ان يجتهد ليتفقه بالدين ، وأن يهتدي بهدي القرآن وصحيح الحديث ، أو أن يجدّ ويجتهد لتوسيع مفهومه منهما والاستنتاج بالقياس على ما ينطبق على العلوم العصرية وحاجات الزمان وأحكامه ؟ !

« إن الله بعث محمداً رسولاً بلسان قومه العربي ليفهمهم ما يريد إفهامهم ، وليفهموا منه ما يقوله لهم . قال : « وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه » وقال « إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون » فالقرآن ما أنزل الا ليفهم ، ولكي يعمل الانسان بعقله لتدبر معانيه وفهم احكامه والمراد منها .

« فمن كان عالماً باللسان العربي ، وعاقلاً غير مجنون ، وعارفاً بسيرة السلف ، وما كان من طرق الاجماع ، وما كان من

الأحكام مطبقاً على النص مباشرة ، أو على وجه القياس ، وصحيح الحديث – جاز له النظر في أحكام القرآن ، وتعقبها ، والتدقيق فيها ، واستنباط الأحكام منها ومن صحيح الحديث والقياس » .

وهكذا كانت دعوته الدينية دعوة الى التجديد والاجتهاد ، وتطهير الدين من الشوائب والبدع والتفاسير ، وجعله قانوناً متطوراً يساير الحياة المتطورة ، ويوحي ، كما هو في حقيقته ، بالسعي والتقدم والابداع ، والاشفاق من ان يصبح أثراً جامداً او حرفاً ميتاً في شروح الرجعيين ومتون المفسرين الذين لم يفهموا نصه وروحه على وجهها الصحيح .

وقد روى الاستاذ عبد القادر المغربي ان السيد جمال الدين قال له بضرورة القيام بحركة تجديدية في الدين أشبه بحركة مارتن لوثر مؤسس البروتستنتينية في اوربا ، تعنى باستئصال ما رسخ في عقول العوام وبعض الخواص ممن فهم بعض العقائد الدينية والنصوص الشرعية على غير وجهها الحقيقي ، مثل حملهم على عدم السعي وراء الاصلاح والنجاح ، ومثل ... ومثل ... فلا بد من بث العقائد الدينية الحقة بين الجمهور وشرحها لهم على وجهها المناسب ، وحملها على محاملها الصحيحة التي تقودهم الى ما فيه خيرهم دنيا واخرى ، ولا بد ايضاً من تهذيب علومنا وتنقيحها وتأليف كتب فيها قريبة المأخذ سهلة الفهم لنستعين بها على تقدمنا ، لا أن نجعلها علماً مقصوداً لذاته كعلم النحو والبلاغة يقضي الانسان جلّ حياته في الاشتغال فيها ، ولا يقدر على انشاء مقالة يعبر بها عما يجيش في نفسه .

قال الدكتور امين عثمان بصدد دعوة السيد جمال الدين الدينية:

« لقد كانت حركات الاصلاح في الاسلام قبل جمال الدين ، حركات رجعية بعيدة عن ميول التجديد . فكان دعاة الاصلاح ينسبون اضمحلال المسلمين الى اهمالهم تطبيق الشريعة الاسلامية وبعدهم عن بساطتها الأولى . ولكن طرافة جمال الدين انه دعا المستنيرين من المسلمين الى النظر في حالهم ، لتحقيق نهضة دينيـــة تجديدية تلائم مقتضيات العصر الحديث ، وتبين لهم ان الاسلام اذا فهم على وجهه الصحيح ، يستطيع ان ينمو نمواً طبيعياً وان يتقدم تقدمـاً يجمع بين المصالح المتجددة للحياة العملية وبين المطالب العاليـــة للنفس الانسانية . »

وكل ذلك ، وغيره مما سنعرض له ، امور ينكرها الجامدون المتزمتون الذين درجوا على وضع عقائدهم الدينية في خصومة دائمة مع الحقائق العلمية ، واتهام كل مفكر حرّ ومجدد مجتهد بالزندقة والألحاد ، فجنوا على الاسلام جناية كبرى ظهر اثرها في الانحطاط السياسي والاجتماعي الذي نرى المسلمين عليه .

مشعل كفاح وتحرر وطني

ذلك هو مجمل دعوة السيد جمال الدين الدينية

أما دعوته السياسية فقد تركزت في امرين رئيسيين هما تحرير البلاد الشرقية من الحكم الاستبدادي وإنقاذها من الاستعمار الاجنبي . فقد طاف الحكيم بلاد الشرق والغرب . فرأى التأخر والانحطاط والضعف في جانب ، والتقدم والرقي والقوة في الجانب الآخر ، رأى اتكالاً وكسلاً وموتاً في قوم ، وسعياً ونشاطاً وحياة في الآخرين ، ووجد سبب هذا التفاوت الكبير في أخذ الغربيين باسباب العلم والمدنية وتمسكهم باهداب الحرية، بينما خضع الشرقيون للحكم المطلق فعانوا استبداد الامراء الظالمين ، وتعرضوا لعدوان المستعمرين لتفشي الجهل والجمود والاستكانة فيهم . قال :

«انظروا الى العالم الغربي تروه على نقسياته الحاضرة ، واستقلال عناصره بمميزاتهم القومية ، لما تساووا على الوجه النسبي بالفضيلة ، واعمها العلم بالواجبات سواء كانت لهم ومعرفة وجوه المطالبة بها ، او عليهم والمسارعة لاداتها ، انتفى من بين ظهرانيهم امر التفرد بالسلطة وسوق الأمة على هوى السلطان . وسينتفي ما بقي في العالم البشري من هذا النوع من الحكم المطلق على سنن

التدريج ومقتضيات الفطرة .

« اصبح الاوربيون اليوم ، والكل في وقت واحد حاكماً لنفسه محكوماً منها بعامل الحكم الشوري ، وصارت كل امة من تلك الامم في مأمن من ان ترضخها القوى او المميزات في مجاوريها ، فتستهويها للانقياد لها ، بالاعتقاد انها من طبقة فوق طبقتها ، لا بفعل الغلب ، ولا بالتشبه والتقليد الأعمى ، لان الفرق من حيث الفضائل واسباب الرقي نزر يسير ، والعمل بما يستحسنه البعض من الآخر غير عسير .

« ومختصر القول ان الحكم للعقل والعلم ، ومتى صادفت هاتان القوتان حمقاً وجهلاً تغلبتا عليهما . وهكذا القول في حكم الفرد المطلق ، فانه يكون ويدوم ما دامت الامة تتخبط في دياجي الجهل . ومتى فشا العلم في الامة فأول ما تناهض ذلك الشكل من الحكم ، وتعمل على التخلص منه ، سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا . »

ومن ثم اتجه همه الى انهاض البلدان الشرقية جملة وفرادى ، وكان اساس هذا النهوض في رأيه تحرر هذه البلدان من الحكم الاستبدادي ، وتحررها من الحكم الاستعماري او النفوذ الاجنبي المتوغل فيها شيئاً فشيئاً ، ثم تضافرها بنوع من الاتحاد يقوي التناصر بينها ويكفل لها السلامة والمنعة . اما الدعامة الاولى التي يعتمد عليها في الوصول بالشرقيين الى هذه الغاية فهي العلم :

« اقول للشرقيين تأملوا كيف تحافظ الدول على ثغور مستعمراتها خوفاً من ادخال الاسلحة ، والاجزاء النارية اليها ، وكيف يشددون

النكير وينزلون اصرم العواقب على من فعل ذلك . والحكمة في هذا ظاهرة ، وهي تخوف المستعمرين من استعمال تلك القوى ضدهم ، ولو أمنوا من عدلهم فيمن يحكمون من الاهلين ، او فيما استولوا عليه من الامصار لما تخوفوا كل هذا التخوف ولا اخذوا من التحوط كل هذا الاحتياط وسنوا له اصرم القوانين .

« والعلم لقوم أو لأمـــة قد سهل الحجر عليها محض الجهل ، ليس بأقل أو أخف دهشة وتأثيراً من ادخـال السلاح لمستعمرات المستعمرين ، أو الاوصياء عـــلى ثروة الشرقيين وبلادهم لسرقهم وجهلهم ! فالغربيون ولا ريب يمانعون بطرق خفية ، ترقية الشرقيين لأنفسهم عن طريقة وطنية خاصة بهم ، ويعرقلون مساعيهم باشكال نصح غريبة ، ولا يسهّلون وسائل تهذيب اخـــلاق مجموعهم ، بل يعملون العكس ، وبالاجمـــال لا يمكّنونهم من التوسل فيما يؤول لوصولهم للحكم الذاتي ، بأساليب غاية في المكر والمغالطة والسفسطة والاستعانة ببعض اهل البلاد على ذلك وهم الأسقط همة . فحياة الشرقيين بالعلم الصحيح ، موت لحكم الغرب فيهم وفك الحجر عنهم ، والعكس بالعكس . »

فليكف الشرقيون اذن عن التفاخر بامجاد ومفاخر دفنت في اجداث الاجداد ، وكفاهم استنامة على اكاليل غار أذوتها الايام ، اذ ليس يبرر تقاعسنا ورقادنا وتخاذلنا تحت انيار العبودية واغلال الاستعمار كون سيوف اجدادنا قد لمعت بالمشرق وانقضّت شهبها عـــلى المغرب ، فذلت لهم رقاب القياصرة والاكاسرة ، وخفقت اعلامهم فوق ممالك الارض ، وليس إلا مما يزيدنا هواناً وخزياً ان

نتغنى بامجاد الفتح العربي وبلادنا نهب للفاتحين يعيثون فيها فساداً ونحن غافلون عنهم أو مستكينون لهم .

« لا تزال تسمع كلاً من العربي والفارسي وغيرهما من الشرقيين، يقول نحن احفاد اولئك الاجـــداد ، ومن سلالة وذرية اولئك الاقيال الامجاد ، ونحن ونحن ، مما يثير الاشجان ويزيد الاحزان . نعم ، اولئك اباؤنا واجدادنا قد جاد الزمان بهم فجاءوا . ولكن واسوءتاه ! وامعرتاه ! واخجلتاه اذا هم سألونا عمـــا فعلنا بمخلفاتهم وما اورثوه لنا واستخلفونا عليه !

« ... اي بينة عـــلى اننا خلف ذلك السلف ؟ وهل يعقل لو ورثنا اخلاقهم ، وحافظنا على فضائلهم ، واقتفينا اثرهم ، ولم نحد عن سيرهم وسيرتهم — نعم ، لو عملنا بعض ذلك ، هل كان يسهل سلب الميراث منا ، وان يستبد بملكنا غيرنا ، ام بقينا نحن الوارثين ! »

أجل ، فليكف الشرقيون عن التغني بامجاد الاجداد ، ولينظروا الى حاضرهم فيتدبروا شأنه ويعالجوا نقصه ، فاما نظروا الى الماضي فليكن باعث هذه النظرة ، ليس الرغبة في الاستنامة لمجده والاستسلام لسلطانه ، بل استلهام دروسه واستيحاء عبره ، لاصلاح هذا الحاضر البغيض ، وبناء ما يطمحون اليـــه من مستقبل يضمن لهم العزة والكرامة وصفو الحياة .

هكذا كان السيد جمال الدين الافغاني في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، مشعلا من مشاعل الحرية والمعرفة ينير اينما حلّ ، ورسولا أطل عـلى الشرق في ابان رقاده ، مهيباً بالجاهلين من ابنائه الى العلم وبالمتفرقين الى الاتحاد ، وحاثاً المتقاعسين عـلى

السعي والمتخاذلين على الجهاد في سبيل حريتهم واستقلال اوطانهم، قائلاً ان الحرية والاستقلال لا يوهبان من ظالم ولا يمنحان من مستعمر، بل يؤخذان بنضال وقوة واقتدار، بجبل تراب البلاد بدماء الشهداء الميامين اولي النفوس الابية والهمم العالية، متنقلاً بين الافغان وتركيا ومصر وايران معرجاً على روسيا والهند، مطوفاً في عواصم اوربا، مضحياً في سبيل مثله العليا بكل ما يتعلق به الناس من متع الحياة ورغد العيش، مجابهاً مكائد الدول الاستعمارية وفي مقدمتها الدولة الانكليزية التي نذر نفسه لتحطيم الاغلال التي تكبل بها بلدان الشرق، متعرضاً لاضطهاد الملوك والامراء الذين كانوا يهدمون دولهم بمظالمهم ولا يريدون الاصلاح الذي يدعو اليه وان كان فيه خلاص اوطانهم ورفعة بلادهم لان هذا الاصلاح ينتقص من سلطانهم ويكف من استبدادهم، فقاوموه وبغوا عليه وناصبوه العداء وطاردوه من قطر الى آخر، لصدق غايته وإباء نفسه وتأثير دعوته الصالحة، حتى ما كان ليدري في أي مكان ستشرق عليه شمس الغد.

ومن هنا كان قول الشيخ ابراهيم اليازجي في ترجمته انها أدنى لأن تكون ترجمة رجل سياسي قد جعل نصب ناظره غرضاً بعيداً، هو ابداً تمثال يقظته وطيف منامه، فكان يلتمسه في كل مكان رجا فيه خيراً، وشبهه بالمتنبي القائل:

ابداً اقطع البلاد ونجمي في هبوط وهمتي في صعود

وعجب من انصراف حكيم عظيم مثله الى السياسة، ولا عجب من ذلك في الواقع ولا غرابة، فانما انصرف جمال الدين الى

السياسة لانه رأى ، كما قال الاستاذ رشيد رضا : « انها اذا لم تصلح لا تدع احداً يعمل اصلاحاً ، ولا يطلب فلاحاً ، ولا ينشر علماً يرقي به الامة ، ولا يطوي وهماً يكشف به الغمة ، وان هي سمحت لمثله بالاصلاح ببث العلوم ، وتربية الارواح والعقول ، فان طريق ذلك يطول عليه ، وربما حالت المطامع الاجنبية دون الوصول اليه . فهو ما اختار الاصلاح من طريق السياسة الا لاعتقاده ان العمل من طريقها اسرع تأثيراً من العلم والكتابة . » وذلك هو الحق .

نشأة حكيم

•

اذا تمثلت رجلاً عربياً من اهالي الحرمين ، حنطي اللون ، ممتلىء الجسم ، قوي البنية ، ربعة في الطول ، يرتدي جبة وسراويل سوداء تنطبق على الكاحلين ، وعمامة صغيرة بيضاء على زي علماء الاستانة ، واذا تخيلت ان هذا الرجل الاعرابي السمة ، عظيم الرأس ، مسترسل الشعر ، عريض الجبهة ، واسع العينين ، قوي اللحظ نافذه ، ثم اذا تصورت ان صاحب ذلك الجسم القوي وهذا الرأس الكبير والمحيا الجميل ، كان صلب الارادة ، قوي الشخصية ، عظيم الحجة ، متوقد الذكاء ، وانه كان الى ذلك كله ، منارة للحرية في كل مكان حلّ به ، ورسولا من رسل الفكر المجدد الثائر ، ومناضلاً عنيداً لا تلين قناته ولا يهاب الموت ، وخطيباً مصقعاً لم يقم في الشرق في عهده من هو أخطب منه - استطعت ان تكوّن في ذهنك صورة قريبة بعض الشيء من شخص جمال الدين الافغاني.

والشائع عن السيد جمال الدين الافغاني انه ولد في قرية اسعد آباد في ناحية كنر بالافغان ، من اسرة عريقة يتصل نسبها بالحسين بن علي حفيد النبي العربي ، ولها إمارة على مقاطعة صغيرة في الافغان . وكان الامام محمد عبده اول من ذكر ذلك في اول ترجمة

كتبت لجمال الدين ، فتناقله عنه مترجموه من بعده . ثم شك بعض الباحثين وفي مقدمتهم الاستاذ مصطفى عبد الرازق في نسبته الى الافغان ، فقالوا انه فارسي الاصل افغاني النشأة .

وقد قرأنا مقالين للكاتب العراقي الاستاذ عبد الكريم الدجيلي نشر أحدهما في مجلة « الرسالة » السنة الحادية عشرة الصفحة ٤٦٠ ، والآخر في العدد الخاص الذي اصدرته جريدة « الرأي العام » العراقية لمناسبة نقل رفات جمال الدين الى الافغان في شهر كانون الاول سنة ١٩٤٤ ، أكد فيهما ان السيد جمال من أصل ايراني ولا صلة له بالافغان مطلقاً ، وان مبرز غلام حسين خان استاذ اللغة الفارسية بالجامعة الاميركية في بيروت قد اثبت ذلك بجلاء في كتاب له مطبوع في سنة ١٩٢٩ بعنوان « مردان نامي شرق » . ويخلص الاستاذ الدجيلي الى القول بان السيد جمال الدين هو ابن السيد صفدر* بن السيد علي الترمذي المحدث المشهور ، وان نسبه يرتقي الى الامام الحسين بن علي بن ابي طالب ، فهو علوي النسب ، وقد ولد في قرية أسد آباد ، وهي قرية صغيرة تقع بين همذان وكنكادر على ضفاف نهر الوند ، وفي هذه القرية اليوم مدرسة اسمها المدرسة الجمالية انشئت تخليداً لذكراه ، وبها اقاربه ومن يتصل به في النسب ، وهو يعرف أرحاماً له يقيمون الآن في النجف ولهم صلة رحم وقرابة في أسد آباد .

---

* يؤكد الاستاذ مصطفى عبد الرازق ان والد جمال الدين كان يسمى صفدر وهو لفظ فارسي من القاب الامام علي ومعناه المفتحم او ما يشبه ذلك . وعلى هذا الرأي ، الاستاذ محمد عبده الذي يسميه صفتر .

وكذلك حدثنا صديقنا الشاعر العراقي الكبير الاستاذ احمد الصافي النجفي ، انه لما لجأ الى طهران في خلال الثورة العراقية الاولى التي انتهت بتتويج الملك فيصل على العراق سنة ١٩١٩ ، نزل في دار الحاج حسين آغا بن الحاج محمد حسن آغا الذي كان يعرف بأمين الضرب ، أي امين صك النقود ، والذي يعرف اليوم بعد الغاء الالقاب القديمة ، بالمبدوي ، وكان بيته ملجأ للثوار العراقيين اللاجئين الى ايران ومنهم الميرزا محمد رضا بن المجتهد الاكبر الميرزا احمدرضا الشيرازي الذي افتى بمحاربة الانكليز في الثورة العراقية الاولى . وقد اخبره مضيفه ان السيد جمال الدين كان قد اقام في ضيافة ابيه ،لما قدم الى ايران ، سنة ونصف السنة ، وكان هو يومذاك شاباً فدرس عليه العربية . وهو ما يزال يحتفظ بالنصوص التي كان يترجمها له السيد من الفارسية الى العربية او بالعكس . وقد اكد الحاج حسين آغا للاستاذ الصافي في خلال ذلك الحديث ، ان السيد جمال فارسي الاصل ، وهو من قرية اسد آباد واسرته معروفة هناك . وقال لنا الاستاذ الصافي ايضاً : وحدثني احد مشايخ النجف ان الشاعر والمجتهد محمد سعيد الحبوبي كان يحدث عن السيد جمال الدين قائلاً : لقد كنا ندرس معاً علم التصوف عند الحاج عباس قولي بالنجف ، وكان السيد جمال من حسن البيان بحيث يستطيع ، ان اراد ، ان يصور الحق باطلاً والباطل حقاً .

ومن ذلك يتبين ان السيد جمال الدين كان فارسي الاصل ،ونرجح انه انتسب الى الافغان لامر هام يتعلق برسالته الاصلاحية الكبرى ،

فقد اراد السيد نشر هذه الرسالة في اقطار اسلامية سنية المذهب ، ولم يكن من العوامل المؤاتية لنجاحها صدورها عن عالم شيعي النزعة ، وواضح ان مذهب السنة هو الشائع في الافغان ، بينما يسود فارس المذهب الشيعي . ويقول الاستاذ مصطفى عبدالرازق: « والسيد جمال الدين ، من الشيعة كان ام من اهل السنة ، قد تسامى عن كل معاني التعصب لفرقة من فرق المسلمين ، بل هو تسامى عن كل معاني التعصب الضيق الذي يُلقي بين الناس إحناً وعداوات » .

واذا كان الشك قد انجلى فيما يتعلق بنسب جمال الدين ، فان الغموض ما يزال يكتنف المرحلة الاولى من نشأته . فهل ولد هذا النابغة في قرية أسد آباد الفارسية ونشأ فيها ثم انتقل به ابوه الى الافغان ؟ أم ان السيد صفدر قد رحل الى الافغان وطابت له السكنى فيها وولد له جمال الدين وهو هناك ؟ كل ما نعلمه ، مما رواه الامام محمد عبده في ترجمته ، انه فتح عينيه للنور سنة ١٨٣٩م ١٨٣٩ ١٢٥٤ هـ ، وبلاد الافغان تعصف بها الفوضى ، وتمتد اليها مخالب الاستعمار ، كاكثر الاقطار الشرقية .

وكان ملك الافغان قد آل في ذلك العهد لدوست محمد خان ، بعد حرب بينه وبين الانكليز تكللت بنجاحه ، فما كاد الحكم ينتظم له بعد هذه الحرب الخارجية حتى تحول الى بلاده يقمع الحركات الداخلية فيها ، بالضرب على ايدي الامراء وذوي النفوذ ممن تمردوا عليه او ممن خشي ان يحملوا لواء التمرد . ومن هؤلاء السيد صفدر ابو جمال الدين الذي لم يطمئن الملك الى موالاته اياه ، فامر بسلب عشيرته الاراضي

التي تستقل بها ، ودعاه مع اسرته للاقامة في العاصمة الافغانية ليكون تحت اشرافه المباشر . وكان جمال الدين اذ ذاك صبياً في الثامنة من عمره ، فلما انتقل به ابوه الى كابل انصرف الى تربيته وتعليمه ، فتلقى الآداب العربية وعلوم الشريعة والحكمة والمنطق عن اساتذة ماهرين وعلى الطريقة المتبعة في تلك البلاد ذلك العهد ، حتى استكمل الغاية منها في سن الثامنة عشرة .

ثم ارتحل جمال الدين الى الهند فاقام بها سنة وبضعة اشهر يستطلع اخبارها ويتعرف احوالها ، وينظر في بعض العلوم الرياضية على الطريقة الاوربية الجديدة . وبدا له هناك ان يذهب الى الاقطار العربية فرحل اليها متنقلا من مدينة الى اخرى ، منقباً عن احوالها وعادات اهلها ، حتى وصل الى مكة سنة ١٨٥٧ (١٢٧٣) بعد سنة من قيامه من بلاد الهند .

ويروى ، ولا ندري مدى ما في هذه الرواية من صحة ، ان فكرة الجامعة الاسلامية كانت قد اختمرت في نفسه ، وانه وجد في بيت الله حيث تجتمع كل سنة الالوف العديدة من مسلمي الاقطار كافة ، اكبر مؤتمر اسلامي يمثل بلاد الاسلام خير تمثيل ، فلم يبرح بلاد الحجاز الا وقد انشأ فيها جمعية تسمى « ام القرى » كانت اشبه ببرلمان اسلامي كبير !

وعاد جمال الدين بعد ذلك الى الافغان ، فاسترعى الانظار بذكائه النادر وميله الى الفنون العسكرية ، فادخله الملك في حاشيته ثم اخذه في معيته لما ذهب لمحاربة احمد شاه احد الامراء المتمردين ، فلازمه السيد مدة حصاره لمدينة هراة ، ثم توفي وانتقل السلطان الى

ولي عهده شير علي خان سنة ١٨٦٤ (١٢٨٠) ولكن شقيقَيْ الملك الجديد ، افضل خان واعظم خان ، شقا عصا الطاعة واعتصم كل منهما بالولاية التي كان يليها في عهد ابيه ، فدارت بين الامراء الثلاثة رحى معارك عنيفة افضت الى وقوع افضل خان اسيراً في يد الملك ، وظل ابنه عبد الرحمن يناضل بجانب عمه حتى تمكنا من الاستيلاء على العاصمة كابل واخراج افضل خان من سجنه والمناداة به اميراً ، على انه لم يعش الا شهوراً معدودة فخلفه في الملك اخوه اعظم خان.

وكان جمال الدين طوال هذه المدة موالياً لأعظم خان مناصراً له ، فلما تولى الأمارة جعله كبير وزرائه وهو حينذاك في السابعة والعشرين من عمره ، وصار يلجأ الى رأيه في عظائم الأمور . بيد ان الاصابع الاجنبية لم تزل تعبث بمصير الأفغان ، حتى اشتد ساعد علي خان الملك السابق ، بمعاضدة الانكليز ، وكان قد اعتصم بمدينة هراة ، فزحف على العاصمة بجيش كبير يتقدمه تيار جارف من « الدسائس التي حاكت السياسة الانكليزية خيوطها في حذر شديد وتكتم بالغ ، والاموال التي بذلتها في سخاء عظيم واسراف لا حد له » كما قال الدكتور تشارلس آدمز ، حتى فسدت أمانات العاملين لأعظم خان ، ووجد هذا نفسه وحيداً ليس حوله الا ابن اخيه عبد الرحمن والا وزيره جمال الدين . فلم يجد خيراً من تجنب هذا الصراع المخفق ، فغادر بلاده الى ايران ، ولبث جمال الدين وحده في كابل ، فلم يمسه شير علي خان بسوء خشية انتصار الناس له احتراماً لعلمه وفضله ، وحمية لآل البيت النبوي ، الا انه لم ينصرف عن الاحتيال للغدر به ، لا سيما وقد ابى الاشتراك معه في

الحكم لموالاته للمستعمرين وخدمته اياهم . ولما شعر جمال بما يدبر له في الخفاء ، استأذن الامير في الحج لينجو من غدره ، فاذن له على ان لا يمر ببلاد العجم مخافة اتصاله بمحمد اعظم خان ، فارتحل عن طريق الهند سنة ١٨٦٩ (١٢٨٥) .

لم يشأ جمال الدين الظهور في الهند بمظهر يلفت النظر اليه ، فكتب الى احد اصحابه من تجار الافغان هناك يسأله ان يكون ضيفه على أبسط حالات الضيف والمضيف ، لكنه ما كاد يصل الى الحدود حتى رأى الحكومة تستقبله هناك استقبالاً رسمياً حافلاً ، ولم يرَ بين ذلك الجمهور من المستقبلين احداً من معارفه وخصوصاً التاجر الذي استضافه ، فأدرك الغرض من هذا الاجلال ، وقال : « مأربٌ لا حفاوة من كريم » !

ولما طلب الذهاب الى بيت صديقه التاجر الافغاني ، قيل له ان الحكومة قد اعدت له نزلاً يليق بامثاله من علية القوم ! ثم سئل عن مدة اقامته في الهند ، فقال لا اكثر من شهرين ، فقبلت الحكومة ذلك ، واحاطته بعدد من موظفيها يسألون كل زائر عن غرض زيارته وما يريد ان يقوله . فجاء في اليوم الاول لزيارته عشرات ، وفي اليوم الثاني اصبحت العشرات مئات ، وفي الثالث والرابع وفدوا جماهير ، ولم ينقض اسبوع واحد حتى تنبهت روح الوطنية في ارجاء الهند واحاط الوطنيون الصادقون بالسيد يقتبسون من حكمته ، ويهتدون بارشاده ويفيدون من جرأته واقدامه .

وفيما الحكيم في مجلسه ذات يوم ، وقد اجتمع عنده عدد غفير من العلماء والاعيان ، دخل عليه احد كبار الموظفين وقال له :

« ان الحكومة الهندية كانت تساهلت معكم فسمحت لكم بالاقامة شهرين ، ولكنها رأت ان تبلغكم اليوم ان حالة البلاد لا تساعد على بقائكم اكثر مما مكثتم ». فاحتدم الحاضرون غضباً واخذوا يحتجون على هذا الانذار ، وهمّ بعضهم برجل الحكومة يريدون ان يخرجوه عنوةً من المجلس ، ولكن جمالاً دعاهم الى السكوت وحال بينهم وبين رسول الحكومة ، وقال : « انني ما اتيت الى الهند لأخيف حكومة بريطانيا العظمى ، ولا انا على استعداد اليوم لاحدث شغباً عليها ، ولا لأنتقد شيئاً من اعمالها ، ولكن تخوفها من زائر أعزل مثلي ، ومصادرتها لزائرين هم اضعف مني ، يسجل على حكومة بريطانيا وهن عزيمتها ، وضعف شوكتها ، وقلة عددها ، وعدم امنها من حكمها ، وانها في حقيقة حكمها لهذه الأقطار الشاسعة اضعف بكثير من شعوبها » .

ثم التفت الى زائريه وقال لهم ، وكأنه اراد ان يلقي على مسامعهم درساً اخيراً لا ينسوه مدى الحياة ويكون حافزاً دائماً لهم على طلب الحرية والاستماتة في سبيلها :

« يا اهل الهند ، وعزة الحق وسر العدل ، لو كنتم وانتم تعدون بمئات من الملايين ذباباً مع حاميتكم البريطانيين ، ومن استخدمتهم من ابنائكم فحملتهم سلاحها لقتل استقلالكم واستنفاد ثروتكم ، وهم بمجموعهم لا يتجاوزون عشرات الالوف — لو كنتم مئات الملايين كما قلت ذباباً ، لكان طنينكم يصم آذان بريطانيا العظمى ، ويجعل في آذان كبيرهم المستر غلادستون وقراً .

« لو كنتم انتم مئات الملايين من الهنود ، وقد مسخكم الله فجعل

كلا منكم سلحفاة، وخضتم البحر، واحطتم بجزيرة بريطانيا العظمى، لجررتموها الى القعر وعدتم الى هندكم أحراراً . »

فأنشأ الحاضرون يذرفون الدموع، فقال اذ ذاك بصوت عال: « اعلموا ان البكاء للنساء ، والسلطان محمود الغزنوي ما اتى الهند باكياً بل أتى شاكي السلاح ، ولا حياة لقوم لا يستقبلون الموت في سبيل الاستقلال بثغر باسم ! »

وفي صباح اليوم التالي سيّرته الحكومة في احدى بواخرها الى السويس ، فأقام في مصر حوالي أربعين يوماً تردد فيها على الجامع الازهر ، وخالط بعض الطلبة ورجال العلم . وكان في نيته السفر الى الحجاز ، فوصلتـــه دعوة من السلطان عبد العزيز لموافاته الى الاستانة ، وكان قد تسامع بدعوته ومكانته وعلو شأنه بين المسلمين فأراد ان يفيد منه ، فسافر الى الاستانة ملبياً دعوة السلطان .

وصل جمال الدين الى الاستانة في اوائل سنة ١٨٧٠ (١٢٨٧) وهو بزيه الافغاني: قباء وكساء وعمامة عجراء. فرحبت به الحكومة خير ترحيب ، واكرم السلطان عبد العزيز وفادته ، والتف حوله العلماء والادباء والاعيـان وفي طليعتهم عالي باشا الصدر الاعظم ، وتنافلوا الثناء عـــلى علمه وادبه وفضله ، وهو اجنبي عنهم غريب اللسان فيهم . وما هي إلا شهور ستة حتى سمي عضواً في مجلس المعارف ، فحاول اصلاح مناهج التعليم وتعميمه وتوسيع نطاقه ، واشار بطرقٍ لبلوغ ذلك المقصد لم يوافقه عليهـا رفقاؤه ، « ومن تلك الطرق ، كما قال الاستاذ مصطفى عبد الرازق ، ما احفظ عليه قلب شيخ الاسلام لذلك العهد حسن افندي فهمي ، لانها كانت تمس

شيئاً من رزقه ، فاضمر له هذا الشيخ السوء ، وأرصد له العنت ، وكان لا يظهر رأيٌ للسيد جمال في الصحف أو في المحافل حتى يبادر الى نقده نيلاً منه وتقليلاً لشأنه .

وفي شهر رمضان من تلك السنة ، طلب من جمال الدين ان يلقي في دار الفنون خطاباً باللغة التركية ، وكان قد درسها واتقنها . فالقى محاضرة عن الصناعة شبه فيها الامة بجسم حي والصناعات باعضاء ذلك الجسم ، وقال كما انه لا حياة للجسم بدون الاعضاء كذلك لا حياة للامة بدون الصناعات . ثم شبه الملك مثلا بالمخ الذي هو مركز التدبير والارادة ، والحدادة بالعضد ، والزراعة بالكبد ، والملاحة بالرجلين . ومضى في تعداد سائر الصناعات والاعضاء حتى اتى على جميعها ببيان ضاف مبيناً اهمية كل منها . ثم قال : هذا ما يتألف منه جسم السعادة الانسانية ، ولا حياة لجسم الا بروح ، وروح هذا الجسم اما النبوة واما الحكمة .

فلم يرق هذا الخطاب شيخ الاسلام لما كان في نفسه من الحقد عليه ، فرماه بالالحاد ، واوعز الى بعض الصحف وبعض الوعاظ في المساجد ان يذكروا في مقالاتهم وفي خطبهم ان جمال الدين الافغاني قد زعم ان النبوة صنعة !

فساور جمال الدين غضب شديد ، وطلب محاكمة شيخ الاسلام ! وانقسم الرأي العام بصحفه ومجالسه فريقين ، منه من ينتصر للسيد ومنه من يأتمر مع الشيخ ، وجمال الدين في خلال ذلك يشتد في طلب المحاكمة ، وحسن افندي يشتد في الاتهام ، حتى تلقى الحكيم امراً بالجلاء عن تركيا ... ولم يكن عالي باشا ليرغب في نفي السيد ،

بل كان يريد لو واتته الظروف ان يحله محل حسن افندي في مشيخة الاسلام ، ولكن هـذا الرجل استطاع ان يُكره الصدر الاعظم على اقصاء جمال الدين ، باثارة العامة واهل الجمود .

وبينما جمال الدين يتأهب لمغادرة الاستانة منفياً ، زاره عدد من العلماء المستنيرين يعلنون اسفهم ، فكانت هذه الزيارة مناسبة اخيرة له بسط فيها شيئاً من تعاليمه . وكان احد زائريه قـد تطرف في حملته على شيخ الاسلام فحمل على الدين نفسه ، فاستنكر الحكيم ذلك وتحدث عن السلطتين المدنية والروحية حديثاً مستفيضاً خلاصته ان السلطة المدنية بمليكها أو سلطانها ، انما تستمد قوتها من الامة لقمع اهل الشر ، وصيانة حقوق العامـة والخاصة ، وتوفير الراحة المجموع بالسهر على الامن وتوزيع العدالة المطلقة ، الى آخر ما في الوازع والسلطان من المنافع العامة .

اما اذا اودعت هذه السلطة بيد رجل غر جاهل عات اكتنفه قوم من فاسدي الاخلاق مجهولي الاعراق ، يلعبون بالمسيطر كيف يشاءون ، ثم يحتجون على الشعب بقولهم : « مشيئة الملك قانون المملكة » فهذا القول ، على تلك الحالة ، يوجب على الامة ان تقف في وجهه ، وان تقاومه بكل ما لديها من قوة ، لان الحق في هذا ان ارادة الشعب غير المكره وغير المسلوب حريته قولا وعملاً ، هي قانون ذلك الشعب المتبع ، والقانون الذي يجب على كل حاكم ان يكون خادماً له امينا على تنفيذه .

وكل شعب تلعب به الاهواء ، ويفرق شيعـاً وطوائف ، وتستحكم من افراده محبة الذات والانانية ، فيتجرون باسم الامـة

تجاه الفرد المسلط ، ويستنزفون ثروة المجموع ارضاء له لينالوا بُلغة من عيش - يكون كالانعام السائمة أو أضل سبيلا . ومثل هـذا الشعب هو الذي تصدق عليه تلك القاعـدة الجائرة التي اوجدها المستبدون : « مشيئة الملك قانون المملكة » !

وكذلك القول في السلطة الروحيـة ، فان الدين اذا تمكن بحقيقته من نفس انسان ، وخلا عن مراقبة السلطان المدني ، فهناك يفعل سلطان الروح ويردعه عن سرقة مال لو سرقه لما شهد عليه احد ، وعن نفس لو قتلها لما تمكن الحاكم المدني ان يقتص منه . هـذه بعض منافع الروح الدينية . ولا ترى في الاديان الثلاثة ما يخالف نفع المجموع البشري ، بل انها لتحضه على ان يعمل الخير المطلق مع اخيه وقريبه ، وتحظر عليه عمل الشر مع اي كان . اما اذا انحرفت هذه السلطة المعنوية وتحرّفت عن مواضعها ، واختل جوهر وضعها الاصلي ، فيجب عندئذ الوقوف تجاهها ، والعمل بكل قوة لارجاعها الى اصلها .

ثم قال: « اذا سار الدين في غايته الشريفة حمدته السلطة المدنية بلا شك . واذا سارت السلطة المدنية في الغاية المقصودة منها وهي العدل المطلق حمدتها السلطة الروحيـة وشكرتها بلا ريب . ولا تتنافر هاتان السلطتان إلا اذا خرجت احداهما عن المحور اللازم لها والموضوعة لاجله . »

فجر النهضة المصرية

•

عاد جمال الدين الى مصر في ٢٢ آذار سنة ١٨٧١ (اول محرم سنة ١٢٨٨) فرحب بمقدمه رياض باشا وزير الخديو اسماعيل ، واجرى عليه مرتباً قدره مائة وعشرون جنيهاً في السنة . وكان هذا المسلك غريباً من حكومة مصر ، وقد عرفت ما لجمال الدين من خطر على سياستها ، وما لدعوته الوطنية وآرائه الاصلاحية من تأثير فعال في نفوس الناس . ولكن حكومة القاهرة كانت تنافس يومذاك حكومة الاستانة ، وتأبى ان تخضع لها وان يكون اميرها تابعاً للسلطان العثماني . فاستقبالها جمال الدين تقديراً لمكانته العلمية بعد نفيه من تركيا ، كان يُظهر الخديو بمظهر الحامي للعلم في شخص الحكيم الافغاني ، فضلاً عما له من معنى سياسي .

ولم يكن ليخيل للخديو اسماعيل عهد ذاك ان آراء مثل آراء جمال الدين قد تكون خطراً عليه ، فقد كان في اوج مجده وسلطانه يتصرف في ملكه ورعيته كما يشاء ، ولم تكن ايدي الاجانب قد امتدت بعد الى بلاده . ومن ثم اتخذت دعوة جمال الدين الاصلاحية اول اقامته في مصر ، شكلاً ادبياً يمزج السياسة بالثقافة . ولم تبد بمظهرها الثوري المخوف الا حوالي سنة ١٨٧٦ حين سيطر الاجانب

على شؤون البلاد . على ان هذه الثورة لم تتجه مع ذلك ضد اسماعيل نفسه ، بقدر ما اتجهت ضد التدخل الاجنبي .

قضى جمال الدين ثماني سنوات في مصر ، معلماً مجدداً مكافحاً ، يسير مع تطورها ويدفعه الى الامام . ومصر حينذاك ، كما قال محمد عبده ، تتخبط في شدائد مهلكة وظلمات حالكة ، يضل فيها الرشيد ويتعثر فيها العزم الشديد . ويسهب الامام في وصف تلك الحال ، واثر جمال الدين فيها ، فيقول ان اهالي مصر كانوا يرون شؤونهم العامة والخاصة ملكاً لحاكمهم الاعلى ، ومن يستنيبه عنه في تدبير امورهم ، يتصرف بها حسب ارادته ، ويعتقدون ان سعادتهم وشقاءهم موكولان الى امانته وعدله او خيانته وظلمه ، ولايعلمون من علاقة بينهم وبين الحكومة سوى انهم محكومون مسيرون في ما تكلفهم به وتضربه عليهم ولا يرى احدهم لنفسه رأياً يحق له ان يبديه في ادارة بلاده واصلاح امته ، لانه كان بجانب كل لفظ يقال في هذا الشأن نفي عن الوطن او ازهاق للروح او تجريد من المال .. حتى جاء جمال الدين الى تلك الديار ، وتعرف اليه اناس من شتى هيئاتها وطبقاتها ، فاستيقظت حينئذ مشاعر ، وانتبهت عقول ، وخف حجاب الغفلة في كثير من انحاء البلاد .

وليس هذا رأي الاستاذ محمد عبده وحده ، فان جميع الذين تحدثوا عن جمال الدين مجمعون على ان قدومه الى مصر ، وتحلّق الطلاب حوله من كل صنف ، ودعوته الى اصلاح الشعوب الاسلامية من طريق التوفيق بين اصول الاسلام الصحيحة وقواعد علم الاجتماع التي ظهرت فائدتها في معالجة شؤون البشر وانتظام احوال الجماعات ،

كان مبدأ النهضة الفكرية في البلاد العربيـــة وسائر بلاد الشرق الادنى ، ولم تزل تنمو الى الآن رامية الى تحرير هذه الاقطار من اغلال الاستعمار والحكم الاستبدادي والاخذ بها الى معارج الرقي والمدنيـــة .

وقد تحدث الاستاذ احمد امين عن اقامة جمال الدين في مصر ، واثرها في تحويل مجرى الأدب ونقله من حـال الى حال ، فقال : « كان الادب عبد الارستوقراطية لا همّ له الامدح الملوك والأمراء ، والتغني بافعالهم وصفاتهم مهما كانوا ظلمة فجاراً ، فكل حاكم سيد الوجود في زمانه ، آتٍ بالمعجزات في اعماله ، معصوم من الخطأ فيما يأتي به ، يبتز مال الناس غصباً فلا يُلام على ما غصب ولكن يُمدح على ما أنفق ، ويقتل من شاء فلا يُسأل عمن قتل ولكن يُشاد بفضله اذا عفا . الفن والأدب والشعر والنثر موسيقى لطربه ، وبهلوان لتسليته ، وعبيد مسخرة لنهش اعدائه ومدح اوليائـــه . الاديب الصغير مدّاح للغني الصغير ، والاديب الكبـــير مدّاح للأمير الكبير — فأتى جمال الدين فسخر الأدب في خدمة الشعب ، يطالب بحقوقه ويدافع عن ظلمه ، ويهاجم من اعتدى عليه كائناً من كان ، يبيّن للناس سوء حالهم ومواضع بؤسهم ، ويبصّرهم بمن كان سبب فقرهم ، ويحرضهم ان يخرجوا من الظلمات الى النور ، وألا يخشوا بأس الحاكم فليست قوته الا بهم ولا غنـاه الا منهم ، وان يلحوا في طلب حقوقهم المغصوبة وسعادتهم المسلوبة ، فخرج للناس بأدب جديد ينظر للشعب اكثر مما ينظر الى الحاكم ، وينشد الحرية ويخلع العبودية ، ويفيض في حقوق الناس وواجبات الحاكم ،

ويجعل من الأديب مشرفاً على الامراء لا سائلاً يمد يده للاغنياء ، وهذه نغمة جديدة لم يعرفها المسلمون منذ عهد الاستبداد . »

وتساءل الاستاذ احمد امين عن « الشيء الجديد » الذي وجده تلاميذ جمال الدين عنده ، فاطمأنوا اليه واهتدوا به ، ثم اجاب على ذلك جواباً محكماً اجمل فيه مزاياه وخصائصه الاساسية ، واهمها في نظرنا « ربط جزئيات الحياة العلمية والعملية كلها برباط واحد يفتح النوافذ كلها بعضها على بعض حتى تتألف منها وحدة . فالتصوف ، والفلسفة ، والدنيا العامة ، ودنيا الشخص ، هذه كلها لا يمكن ان يكون كل منها حجرة مغلقة على نفسها ، بل لا بد ان تتقابل وتتناغم وتؤلف دوراً موسيقياً واحداً ، فاذا تم هذا صح نظر الانسان وزال عنه كثير من الشك المؤلم والحيرة المضنية ، وبت فيما ينفع وما يضر وما يعمل وما يدع ، ووضحت امامه الاعلام واستنارت السبل ... »

على هذا الاساس الراسخ من البصر العميق بتشابك الاشياء وتفاعلها ، كان جمال الدين يعلم تلاميذه في مصر ، سالكاً لنشر تعاليمه كل سبيل وكل وسيلة . فكان يلقي في بيته دروساً علمية منظمة يحضرها طائفة من طلاب الأزهر وبعض علمائه ، فيقرأ لهم كتاباً في الفقه او في الفلسفة ، يفسر في ضوئه تعاليمه ، ويتخذه ذريعة لنشر ارائه الادبية والسياسية ، او يلقي عليهم محاضرة في أحد المواضيع الهامة .

وقد نقل لنا الاستاذ محمد عبده درسين من دروس الحكيم ، احدهما في التربية والآخر في الصناعة ، قال في الاول ان قوام

حياة الاجسام الحية بتفاعل العناصر الداخلية فيها تفاعلاً متناسباً ، بحيث لا يتميز احد تلك العناصر بالغلبة على باقيها غلبة تقضي بظهور خواصه وتسلطها على خصائص البقية ، فبذلك التناسب يتم للبدن ما يسمى بالمزاج المعتدل ، فان غلب احد العناصر على سائرها واضمحلت خواص بقيتها فيه ، انحرف المزاج وخرج عن حد الاعتدال واستولى المرض على الجسم . وكما ان روح التركيب البدني انما يستقر حيث تجتمع اصول متضاربة ، وينشأ من تغالبها مزاج معتدل كامل ، وبغلبة احدهما يفسد التركيب ويذهب الروح الحيوي ، كذلك روح الكمال الانساني انما يكون حيث تجتمع اخلاق متضادة وملكات متخالفة تقوم من تضادها وتخالفها حقيقة الفضيلة المعتدلة . فان تغلب احد الخلقين على الآخر فسد نظام الفضيلة واستحكمت الرذيلة : ألا ترى النفس الانسانية لا بد لها من خلق الجرأة ، وخلق المخافة ، وهما متضادان ، ومن مقاومتها على وجه معتدل ، بحيث يستعمل كل فيما يليق به من المواقع ، تتحقق الشجاعة !

اما الدرس الثاني فقد بين فيه ان الانسان نوع من انواع الحيوانات الارضية ، اتى عليه حين من الدهر وهو على مقربة منها ينشأ نشأتها ويسير في عيشه سيرتها ، ثم استرشد باعمال الحيوانات واهتدى بآثارها ، وتعلم من فعلها وانفعالها ، وتدرج في ذلك شيئاً فشيئاً منقاداً في جميع احواله لقائد الحاجة والضرورة يأتمر أمره ويتبع سيره ويتدرج الى الكمال بما يرشده اليه من التفنن في الفنون واختراع الصنائع . فهو في جميع مراتبه لم يكن ليقيم ظهره بين

الموجودات إلا بدعائم الصنائع، فالصنائع هي قوام النوع الانساني. ثم ينتقل الى القول بان الصناعة قوة ، والقوة منشأ الاثر دائماً فعلا كان او انفعالا . ويتحدث بعد ذلك عن قوة العقل فيقول انها قوة انفرد بها الانسان وهي « محور صلاحه وفلاحه إن وجهها صوب وجهتها الحقيقية . فان استعملها لغايات طبيعية او حسية اي قاصرة على موضوعها المودعة فيه لا تفيد سواه، كأن يطلب بها تنمية بدنه أو جلب ما يلائم ذائقته او نهامته وما يشبه ذلك ، فقد اضاع تلك القوة العالية الشريفة ، وسلخ عنهـا ثمرتها ، وانحط الى درجات الحيوانات بل النباتات التي لم تمنح تلك المنحة الجليلة . وأما من حفظ نفسه من السقوط ، وامسك عليها حق تلك الخاصة ، اعني العقل ، فهو الذي ينظر الى كلية العالم الكبيرة فيعلم ان نوع الانسان وسائر الانواع من لوازم كماله او متمماته ، فيتوجه نحو حفظ ذلك، ويوقن ان نوع الانسان لا يحفظ بقاؤه في عالم الوجود إلا بحفظ اشخاصه على التعاقب. ويتحقق من ان حفظ اشخاصه وافراده انما يكون بالاجتماع والالتئام لما لكل فرد من كثرة الحاجات التي يضيق نطاق وسعه عن ان يأتي عليها في الازمنة المتطاولة ، مع اضطراره الى جميعها في الآن الواحد ، لانها تتوقف على صناعات كثيرة تستفرغ اجل الشخص الواحد في تعلمها فضلا عن تحصيل غايته منها ، فكيف به ان يستقل وهو محتاج الى ثمرات تلك الصناعات جميعها يوماً بيوم بل ساعة بساعة . فلا بد من التعاون في الاعمال فيعتاض كلّ عن عمله بثمرة عمل الآخر ، فيكون المجموع الانساني كبدن ذي اعضاء ويعمل كل عضو منه للبدن لتكون عاقبتـه لنفسه ، اذ لو طلب

الاختصاص مع انه لا بقاء له إلا في ضمن المجموع فقد طلب فقد نفسه من حيث لا يشعر . فاذا علم جميع ذلك وضع نفسه عضواً حقيقياً وركناً ثابتاً يقوم بأداء عمل يعود على كلية الافراد اولاً ويعود الى شخصيته ثانياً . ومبدأ هذا العمل فيه هو الذي نسميه بالصناعة ، فمن لم يكن ذا عمل حقيقي يفيد المجتمع الانساني، ويعين على انتظام الهيئة الكلية ، فهو كالعضو الاشل لا فائدة منه على البدن إلا تكلّف حمل ثقله مع عدم التألم من ازالته فالاولى ابانته وقطعه ... »

ومن دروسه ايضاً انه كان يحث تلامذته على ممارسة الانشاء . ويشجعهم على اصدار الجرائد، ويستكتبهم مواضيع معينة ،متخذاً من كل ذلك سبيلاً الى صقل ملكاتهم وتقويم اذواقهم وتوجيههم توجيهاً اجتماعياً صحيحاً . وروي انه استكتبهم يوماً موضوعاً عن الحرية فكان سعد زغلول اكثرهم اجادة ، فاستخلص السيد من ذلك هذه العبرة الرائعة : « مما يدل على ان الحرية ناشئة في مصران يجيد في الكتابة عنها مثل هذا الناشيء » !

بهذا الأسلوب وجه جمال الدين اذهان مريديه الى البحث الحر والتفكير الحر ، وربى طائفة من الكتاب المجددين يحسنون الكتابة ويحسنون اختيار المواضيع التي يكتبون فيها . على ان مدرسته الكبرى كانت مجالسه الرائعة في بيته وفي بيوت اصحابه وفي الاندية والمحافل . في هذه المدرسة كان يجتمع كل يوم وكل ليلة بعشرات ومئات الناس من الادباء والعلماء والشيوخ والطلاب « فيتسابقون الى القاء أدق المسائل عليه ، وبسط أعوص الأحاجي

لديه، فيحل عقد إشكالها فرداً فرداً، ويفتح اغلاق طلاسمها ورموزها واحداً واحداً ». وفي هذه المدرسة وتلك، تلقى دروسه وتأثر به ونهج على غراره رجال أفذاذ من اعلام النهضة الحديثة، من امثال محمد عبده وسعد زغلول ومحمود سامي البارودي واديب اسحق وعبد السلام المويلحي وسليم النقاش وابراهيم اللقاني وعلي مظهر وابراهيم المويلحي وعبد الكريم سلمان وكثيرون غيرهم.

شرارات ثورة

•

في تلك الايام كانت مصر قد بدأت تجتاز أزمتها المالية المعروفة، اذ قام الخديو اسماعيل بمشاريع عمرانية واسعة استدان لتحقيقها من الدولة الاوربية ، ولا سيما الدولة الانكليزية ، مبالغ كبيرة من المال. الا ان هذه القروض التي بلغت نحو خمسة وتسعين مليوناً من الجنيهات في المدة الواقعة بين سنة ١٨٦٤ وسنة ١٨٧٥ وما تبعها من التنازل للاجانب عن كثير من الحقوق ، جعلت لهؤلاء سبيلاً للتدخل في شؤون مصر والتحكم فيها ، وضاعفت في الوقت نفسه من ارهاق الحكومة للامة المصرية بالضرائب الفادحة . فاتجه جمال الدين حينئذ بتلاميذه الى الناحيـــة السياسية المحض ، وطفق ينبههم الى مضار التدخل الاجنبي والرقابة الاجنبية . قال سليم العنجوري : « واخذ يقرب منه العوام، ويقول لهم في كلامه ما معناه :

« انكم معشر المصريين قد نشأتم في الاستعباد وربيتم في حجر الاستبداد ، وتوالت عليكم قرون منذ زمن الملوك الرعاة حتى اليوم وانتم تحملون عبء الفاتحين ، وتعنون لوطـــأة الغزاة الفاتحين ، تسومكم حكوماتهم الحيف والجور ، وتنزل بكم الخسف والذل ، وانتم صابرون بل راضون ، وتستنزف قوام حياتكم ومواد غذائكم

التي تجمعت بما يتحلب من عرق جباهكم ، بالعصا والمقرعة والسوط ، وانتم معرضون . فلو كان في عروقكم دم فيه كريات حيوية ، وفي رؤوسكم اعصاب تتأثر فتثير النخوة والحمية ، لما رضيتم بهذا الذل وهذه المسكنة ، ولما صبرتم على هذه الضعة والخمول ، ولما قعدتم على الرمضاء وانتم ضاحكون . تناوبتكم أيدي الرعاة ثم اليونان والرومان والفرس ثم العرب والاكراد والمماليك ثم الفرنسيس والمماليك ، وكلهم يشق جلودكم ببضع نهمه ، ويبيض عظامكم بأداة عسفه ، وانتم كالصخرة الملقاة في الفلاة ، لاحسّ لكم ولا صوت ! انظروا اهرام مصر وهياكل منفيس وآثار ثيبة ومشاهد سيوة وحصون دمياط شاهدة بمنعة آبائكم وعزة اجدادكم .

وتشبهوا ان لم تكونوا مثلهم ان التشبه بالرشيد فلاح

هبوا من غفلتكم ، اصحوا من سكرتكم ، انفضوا عنكم غبار الغباوة والخمول ، عيشوا كباقي الامم احراراً ، او موتوا مأجورين شهداء ! »

قال العنجوري : « .. فبدأت تنتشر حركة الخواطر في الديار المصرية ، واخذ القوم يشكون من حكومتهم متململين ، ويتطاولون باعناقهم الى ما يقول مُشرئبين . ومنذ ذلك الحين طارت الشرارة الأولى من شرارات الثورة العرابية . »

وكان الحكيم يعتقد انه لا سبيل الى نهوض الأمة نهضة صحيحة الا على ايدي الاحزاب الوطنية ، لأنها السبيل الوحيد الى جمع شتات ابنائها والى جعلهم بنعمة الاخاء والاتحاد والتعاون والوعي ، اعزة ، بلادهم لهم وهم لبلادهم نعم الامناء ، يعملون متضامنين في

سبيل مصلحة مجموعهم ونصرة مظلومهم ، وتأدية ما عليهم من واجب واخذ مالهم من حق . ولم يكن قد تألف في مصر حتى ذلك الحين ، حزب سياسي منظم ، فالتحق بالمحفل الماسوني الاسكتلندي لعل اعضاءه يعملون معه لرفع الظلم عن مصر . الا ان هؤلاء لم يلبثوا ان صارحوه بان الماسونية لا تتدخل في السياسة خشية على محفلها من بأس الحكومة وبطشها ، فرد جمال الدين على هـذا التصريح بقوله :

« اذا لم تتدخل الماسونية في سياسة الكون وفيها كل بَنّـاء حرّ ، واذا لم تستعمل آلات البناء التي بيدها لهدم القديم وتشييد معالم الحرية والاخاء والمساواة ، واذا لم تدك صروح الظلم والعتو والجور ، فلا حملت يد الأحرار مطرقة حجارة ولا قامت لبنائهم زاوية قائمة ! »

ثم قال : « ان اول ما شوقني للعمل في بناية الأحرار عنوان كبير خطير : حرية ، مساواة ، اخاء ! وغرض هو منفعة الانسان ، والسعي لدك صروح الظلم ، وتشييد معالم العدل ، فحصل لي من وراء كل هذا وصف للماسونية هو : همة للعمل وعزة نفس وشمم ، واحتقار للحياة في سبيل مقاومة من ظلم . هـذا ما رضيته من الوصف للماسونية وارتضيته لها ، ولكن مع الاسف ارى جرائم الأثرة والانانية وحب الرئاسة والعمل بمقتضى الأهواء ... الخ » .

وقال احد الاخوان ذات يوم : « ان الماسونية تفاخر بقِدمها وثباتها أعصراً على شكلها وتقاليدها ! »

فاب الحكيم : « لا ارى ابعـد عن الحق من هذا القول ،

فالماسونية على شكلها هذا وتقاليدها ، ليست فقط قديمة العهد بل هي لم تزل في المهد . واذا اصرت وأصر ابناؤها على الوقوف عند رموز اكثرنا لا يفقه مغزاها ولا المراد من وضعها ، فانها ستخنق في المهد ولا تدرج منه . ان ماسونيتكم اليوم ايها الاخوان لا تتجاوز « كيس اعمال وقبول أخ » يُتلى عليه من اساطير الأولين ما يُمل ويخجل في عقيدة الداخل ويسقط مكانة الماسونية من عينيه ! »

وما لبث السيد جمال الدين ان ادرك انه لا يمكنه العمل مع اعضاء هذا المحفل لترددهم وجبنهم وانصرافهم عن الأهداف التي يسعى اليها ، فانشأ محفلاً وطنياً تابعاً للشرق الفرنسي بلغ اعضاؤه العاملون في فترة وجيزة ثلاثماية عضو من نخبة المفكرين المصريين . ثم اجتمع رأي هؤلاء مع بعض الساسة والأدباء على تأليف حزب سياسي فألفوا الحزب الوطني * في اوائل سنة ١٨٧٩ ، كما ألف آخرون عدة جمعيات وطنية سرية وغير سرية ، فكان ذلك بدء الحياة الحزبية السياسية في مصر .

وعلى لسان الحزب الوطني وهذه الجمعيات السياسية تردد لأول مرة الشعار الوطني المعروف : مصر للمصريين ! ولأول مرة وقف في مجلس النواب المصري ، نواب يطالبون بحقوق الشعب في مراقبة اعمال الحكومة وتطبيق الحياة الدستورية الصحيحة في البلاد . وما لبث هذا المجلس ان اصطدم بنوبار باشا رئيس مجلس

* انا اسس مصطفى كامل حزبه المعروف باسم « الحزب الوطني » سنة ١٩٠٨ اعتبر انه الوارث الوحيد للحزب الذي نحن بصدده .

الوزراء ، في نقاش حول حقوق الامة وحقوق المجلس الذي يمثلها ، اضطرت الوزارة على أثره للاستقالة في ١٩ شباط سنة ١٨٧٩ ، وبقيت البلاد دون وزارة نحواً من عشرين يوماً . ثم عهد بتأليفها الى توفيق باشا وتسلم رياض باشا وزارة الداخلية ، فما لبث هذا ان اصدر مرسوماً بحل المجلس . ولكن اعضاء المجلس لم يذعنوا لهذا الامر ، واذا بنائبين منهم ، هما عبد السلام المويلحي ومحمد راضي ، صديقا جمال الدين ، يقفان في المجلس المصري موقف ميرابو في مجلس فرنسا ، ويقولان في جرأة عظيمة : « ان ما تقوله الحكومة من ان مدة توكيل المجلس قد انتهت غير صحيح ، لان المدة لم تنته بعد ، ولهذا سيبقى المجلس في مكانه وسيوالي اجتماعاته حتى يؤدي واجبه نحو الامة . »

وكان الموقف الذي وقفه المجلس معبراً عن امانى الامة المصرية ، مثيراً لدفين آلامها . فقد بلغ البؤس والظلم اللذان كانت تعانيهما حدهما الاقصى . وأرهقت الضرائب جماهير الفلاحين حتى كادت تعم المجاعة في الارياف . يقول المستر بلنت في كتابه « التاريخ السري » : « ... وكان من النادر ان يرى الانسان شخصاً في الحقول وعلى رأسه عمامة وعلى ظهره شيء اكثر من قميص حتى في ضواحي القاهرة . وكان بين مشايخ القرى قليلون ممن يملكون عباءة . وغصت مدن الارياف في أيام الاسواق ، بالنساء اللاتي يأتين لبيع ملابسهن وحليهن الفضية للمرابين الاروام ، لان جامعي الضرائب كانوا ينتظرون في قراهم والسوط مشهر في ايديهم » !

وقد تأثر السيد جمال الدين لهذه الحالة المؤلمة التي وصلت اليها جماهير الشعب الكادح، من جراء مظالم الامراء واسرافهم وتورطهم في الديون وفاء لشهواتهم وملاذهم، فكان يخطب في الناس خطباً مثيرة لاهبة، ومما كان يقوله: «انت ايها الفلاح المسكين تشق قلب الارض لتستنبت ما تسد به الرمق وتقوم بأود العيال. فلماذا لا تشق قلب ظالمك؟ لماذا لا تشق قلب الذين يأكلون ثمرة اتعابك؟»

ولم تقتصر هذه الحالة على الفلاحين بل عمت جميع الطبقات، فانتشر السخط والتمرد بين جميع ابناء الامة وامتد منها الى الجيش نفسه. وكان السيد جمال الدين واصحابه وتلاميذه من العلماء قد افتوا بان استبداد امراء المسلمين مخالف لتعاليم الاسلام الذي هو في حقيقته جمهورية شورية لا تعتمد سلطة الحاكم فيها إلا على بيعة الناس له وعلى حسن قيامه بالعدل. ومال الى هذا الرأي علماء الازهر انفسهم فطعنوا في اسماعيل وقالوا انه «معتد على القانون وظالم سياسي» وتباحثوا في عزله او التخلص منه. ويروي المستر بلنت ان ثمة عصبة كانت تأتمر على حياة الخديو، وان السيد جمال كان موافقاً على ذلك، وقد اقترح على محمد عبده ان يقتل اسماعيل، ويؤكد المستر بلنت ان محمد عبده قد روى ذلك بنفسه في منزله بعين شمس في ١٨ آذار سنة ١٩٠٣ ثم قال: «ولكن كل هذا كان كلاماً نتهامسه فيما بيننا، وكنت انا موافقاً الموافقة كلها على قتل اسماعيل، ولو اننا عرفنا عرابي في ذلك الوقت، فربما كان في امكاننا ان ننظم الحركة معه، لان قتل اسماعيل في ذلك

الوقت كان يعتبر احسن ما يمكن عمله وكان يمنع تدخل اوربا .»

لكن انقلاباً خطيراً حدث حينذاك ، فأن اسماعيل وجد نفسه بين خطرين : مجابهة الشعب او مجابهة الاجانب ، فآثر الخطر الثاني على الاول ، وكانت انظار الشعب متطلعة الى هدف رئيسي هو الحياة الدستورية الصحيحة ، فشجع اسماعيل هذا المطمح ، ووسع لجمال الدين وتلاميذه مجال الحرية في انتقاد التدخل الاجنبي ومهاجمته ، واستطاع بميل الشعب اليه ان يؤلف وزارة وطنية استرد بها نفوذه وسلطانه . ولكن هذه الوزارة لم تلبث ان خضعت للنفوذ الاجنبي واخذت تنفذ خططه وتعمل لتحقيق اهدافه ، فطالبت الامة وعلى رأسها جمال الدين وانصاره باقالة تلك الوزارة ، فحقق الخديو هذا الطلب ، وكان ذلك اكبر انتصار احرزه جمال الدين واعظم اخفاق مني به التدخل الاجنبي ، مما دعا الاجانب الى التخوف من التطور السريع الذي صارت اليه البلاد ، ومن انتشار تعاليم الحكيم فيها . فوجهوا الى اسماعيل انذاراً يطالبون فيه بالتنازل عن العرش . وفيما الخديو متردد بين الاذعان لهذا الطلب أو رفضه ، اصدر الباب العالي أمراً باقالة اسماعيل ليظهر بمظهر صاحب السلطة في مصر ، فعزل اسماعيل في ٢٥ تموز سنة ١٨٧٩ وولى ابنه توفيق باشا مكانه .

وكان توفيق باشا من اصدقاء جمال الدين والمتأثرين بارائه ، ولا يفتأ يقول له ايام ولايته للعهد : « انك انت موضع املي في مصر ايها السيد » . فكان السيد يعلق عليه آمالا كبيرة لما اظهره من ميل الى الحكم النيابي واصلاح البلاد ، ولكنه ما كاد يرتقي العرش حتى وقف الى جانب القناصل بدلا من ان يقف الى جانب الشعب ،

اذ خشي ان ينكره الشعب عند الخطر كما انكر اباه ، ناسياً ان اباه لم يلجأ الى الشعب إلا في ايام محنته واشراف دولته على الانهيار.

ومن عجب ان احرار المصريين قد الفوا في عهد اسماعيل وفداً على رأسه السيد جمال الدين زار ممثل فرنسا في مصر ، وقال له إن في القطر المصري حزباً وطنياً ينشد الاصلاح ويسعى اليه ، وان أعضاء هذا الحزب مقتنعون بان الاصلاح الذي يريدونه لا يتم إلا على يد ولي العهد توفيق باشا . فقد خيل لاعضاء الوفد ان ممثلي الدول الاجنبية سيؤيدونهم في رغبتهم باطلاق الحرية للمصريين ، وانشاء الحكم الدستوري الذي يطمحون اليه ، وفاتهم ان الاجانب لم يجنوا في عهد الاستبداد إلا الخير ، فهم لا يريدون ان تنجو مصر من براثنه ، اذ لو صلح شأن المصريين ، وكان لهم رأي في ادارة بلادهم ، لوضعوا حداً للضرائب التي يرهق بها الفلاح لوفاء الديون الاجنبية وفوائد هذه الديون الباهظة التي تعطى لاولئك الاجانب ، ولوقفوا في وجه التدخل الاجنبي المتعاظم في امور البلاد .

— وفي الواقع انه ما كاد يتولى توفيق باشا زمام الحكم ، حتى هرع قنصل فرنسا ، وقد عرف ميله الى تحقيق مطالب الأمة ، الى السعي في اقامة الموانع التي تحول دون تحقيق هذه المطالب ، ودعا قنصل انكلترا للاتفاق معه في اقناع الخديو الجديد بضرر الاوضاع الدستورية في ذلك الوقت الذي يسوده الاضطراب المالي ، وبأن اشتراك النواب في درس موازنات الدولة ونحوها من الامور المهمة ، امور تعوق المشاكل الموقوفة لأنها تؤدي الى اختلاف الآراء وافناء الوقت في المداولات والمناقشات !

وقد حاول توفيق باشا ان يستر تراجعه عن افكاره القديمة بستار مبدأي، فقال لجمال الدين: «انني احب كل الخير للمصريين، ويسرني ان أرى بلادي وابناءها في اعلى درجات الرقي والفلاح، ولكني أرى مع الاسف ان اكثر الشعب خامل جاهل لا يصلح ان يلقى عليه ما تلقونه من الدروس والأقوال المهيجة لئلا يلقي نفسه والبلاد في تهلكة».

فاجاب الحكيم: «ليسمح لي سمو امير البلاد أن اقول بحرية، إن الشعب المصري كسائر الشعوب، لا يخلو من وجود الخامل والجاهل بين افراده، ولكنه غير محروم من وجود العالم والعاقل. فبالنظر الذي تنظرون به الى الشعب المصري وافراده ينظر هو الى سموكم. وان قبلتم نصح هذا المخلص، واسرعتم في إشراك الأمة في حكم البلاد عن طريق الشورى، وذلك بان تأمروا باجراء انتخاب نواب عن الأمة يسنون القوانين وينفذونها باسمكم وبارادتكم، يكون ذلك اثبت لعرشكم وأدوم لسلطانكم.»

فأسرّ الخديو في نفسه البطش بجمال الدين، وبدلا من ان يعمل بنصحه عارض وزارة شريف باشا في الاصلاح الاداري الذي كانت قد اعتزمت القيام به، واضطرب الجو السياسي، وهاج الرأي العام، وكان جمال الدين من اعظم قائديه ومهيجيه حتى قيل انه كان يحاول قلب المملكة المصرية الى جمهورية *. فلجأ

---

* يقول الامام محمد عبده في هذا الصدد ان جمال الدين كان يتمنى ان تكون مصر جمهورية لانه من اشد انصار الحكم الجمهوري، ولكنه كان يعرف ان تحقيق هذا المطلب لم يكن مستطاعاً في ذلك الوقت نظراً لاضطراب الاحوال، والجهل السائد على العقول، والخطر الاجنبي المحدق بالبلاد.

= الخديو توفيق باشا بوحي القناصل ، وبالتعاون مع رياض باشا الذي تولى الوزارة الجديدة ، الى اعتقال كثير من المطالبين بالاصلاح الدستوري وقمع الحركات الثورية بالأرهاب . ويقول براون في كتابه « الثورة الفارسية » : « ثم حملت الحكومة البريطانية الخديو الشاب على نفي جمال الدين من مصر » فقبض عليه في ٢٤ آب سنة ١٨٧٩ (٦ رمضان سنة ١٢٩٦) بينما كان عائداً الى داره عند منتصف الليل ، وحمل مع خادمه في الصباح في عربة مغلقة الى السويس دون ان يمكّن من اخذ ثيابه ، وهناك انزل في باخرة مسافرة الى الهند .

قال الاستاذ عبد الرحمن الرافعي : « واذاعت الوزارة بلاغاً رسمياً من ادارة المطبوعات بتاريخ ٢٦ آب سنة ١٨٧٩ سوغت فيه نفي السيد بعبارات ملؤها الكذب والافتراء ، والزمت الصحف المصرية بنشر الأمر الصادر بنفيه مع التشنيع به والزعم بانه كان يرأس جمعية سرية « مجتمعة على فساد الدين والدنيا » فنشرت الصحف ذلك وابت احداها نشره لأن محررها كان من تلامذة جمال الدين فعطلت .

وهكذا كانت اقامة جمال الدين في مصر عملاً وجهاداً ومدرسة له وللمصريين جميعاً . ومنذ دخلها بدأ يتحدث فيها عن حقوق الامة وواجبات الحكومة ، ويقول لتلاميذه ان القوة النيابية لا يمكن ان تحوز المعنى الحقيقي الا اذا كانت من نفس الامة ، واي مجلس نيابي يأمر بتشكيله ملك او امير او قوة اجنبية محركة له ، تكون قوته الموهومة وقفاً على ارادة من احدثه ، فعزة الملك

تنغصها نهضة الشعب المملوك ، خصوصا اذا هو صادم ارادة مالكه او اميره ، والتاريخ لم ينقل لنا ان ملكاً او اميراً او دخيلاً بقوته على شعب ، يرضى عن طيب خاطر ان يبقى مالكاً اسماً وامته هي المالكة فعلاً لادارة شؤونها وزمام امورها على مطلق المعنى ، واعظم اماني الشعوب المملوكة التخلص من ربقة الاجنبي وتحكمه . »

نفي جمال الدين من مصر ، ولكنه ترك فيها تعاليمه وتلاميذه ، بل ترك فيها ثورة تجيش في النفوس كما يجيش المرجل . فلما نفي محمد عبده الى قريته ، واشتد البؤس والارهاب ، نهض العلماء لاثارة رجال الازهر ، واستصدروا من شيخ الاسلام فتوى بعدم صلاحية الخديو للحكم ووجوب خلعه ورفض طلبات اوروبا . ونهض المويلحي والعطار وراضي يستثيرون النواب للجهاد في سبيل الدستور . ونهض عبدالله نديم يثير الشعب بخطبه في الجماهير ودعوته اياها الى محاربة التدخل الاجنبي والمطالبة بحرية الامة . ونهض اخيراً عرابي واخوانه من رجال الجيش فتمردوا على الظلم . ثم نهضت الامة كلها فاشتركت في ثورة رائعة على الاستبداد الداخلي وعلى التدخل الخارجي يجمع المؤرخون على ان السيد جمال الدين كان المنبه الاول اليها وكان صوته اول الاصوات التي ارسلت صيحة الحرية التي ترددت فيها .

— وكان جمال الدين يقيم في مدينة حيدر آباد ، فما كادت انباء الثورة العرابية تتناهى الى الهند حتى قامت فيها بوادر ثورة مماثلة لثورة مصر . فنقل الحكيم من حيدر آباد الى كلكتا ، والزم البقاء

فيها ، وشددت عليه الرقابة ، فبقي سبعة اشهر في معزل عن حياة العالم . ثم افرج الانكليز عنه بعد ان احتلوا مصر على اثر اخفاق الثورة العرابية ، لمـــا اكتنفها من الدسائس الخارجية ، وتهالك الحكام على الدول الاجنبية ، وعبث الدولة العثمانية .

وقد تركت له انكلترا حينذاك الحرية في اختيار الجهـــة التي يريدها ، فسافر حكيم الشرق الى الغرب .

شرقي في بلاد الغرب

•

ارتحل جمال الدين الأفغاني من الهند الى انكلترا وأقام في عاصمتها أسابيع . ويذهب الكاتب الاميركي س . د . ولسن في كتابه « الحركات الحديثة » الى انه سافر الى اميركا قبل سفره الى انكلترا، وانه كان يريد التجنس بالجنسية الاميركية الا انه لم يفعل ذلك . وأشار الى مثل هذا المستر ويلفريد بلنت . ولكن اكثر مترجمي السيد جمال الدين لا يشيرون اليه، ومن اشار اليه منهم فقد نفاه او استبعد وقوعه .

وقد اتيح له ان يتعرف في لندن بجماعة من المفكرين الانكليز، منهم الفيلسوف هربرت سبنسر ، ويروى انه تناقش معه مرة حول المسألة الشرقية ومظالم المستعمرين ، فسأله الفيلسوف ان يعرّف العدل ، فأجابه الحكيم معرّضاً : يوجد العدل عندما تتعادل القوى.

على ان اقامته في لندن لم تطل ، فقد ضاق بهذه المدنية الكبرى أوضاقت هي به فغادرها الى باريس . وكان جمال الدين قد تعلم اللغتين الانكليزية والفرنسية الى جانب الفارسية والعربية والتركية التي يتقنها ، واطلع بهذه اللغات جميعاً اطلاعاً واسعاً ، اجتمع له منه قسط وافر من الثقافة . فلم تنقض فترة وجيزة من

الزمن ، حتى احتل في العاصمة الفرنسية منزلة سامية ، وكتب في صحفها مقالات ملتهبة عن المسألة الشرقية هزت الحكومات الاستعمارية ولفتت اليه انظار الكتاب والمفكرين . وجرت بينه وبين ارنست رينان مناظرة في جريدة « الديبا » عن الاسلام والعلم ، على اثر محاضرة القاها رينان في السربون حول هذا الموضوع قال فيها ان الديانة الاسلامية كانت تناهض العلم ، فرد عليه جمال الدين رد العالم الرصين ، فاجاب رينان على هذا الرد بمقالة رجع فيها عن بعض ما قاله ، فسلّم بان الاسلام في النصف الأول من وجوده لم يحل دون ازدهار الحركة العلمية في الاراضي الاسلامية ، ولكنه ذهب الى القول بانه قد خنق الحركة العلمية في النصف الثاني من وجوده .. ثم قال :

« ولقد خالني الشيخ غير منصف في اني لم اوف الكلام حقه ، ولم أقل في المسيحية ما قلته في الاسلام ، وان الاضطهاد بين المسيحيين لا يقل عما بين المسلمين ، وهذا قول حق ، فغاليلو لم يلق من الكاثوليك خيراً مما لقي ابن رشد من المسلمين ، واذا كنت لم اطل القول في هذه الحقيقة فلأن ارائي في هذا الشأن معروضة لا حاجة بي الى تكريرها على مسمع محفل علم بكل اعمالي وارائي... ولست اريد من المسيحي ترك عقيدته المسيحية ، ولا من المسلم ترك الاسلام ، ولكني اريد من المسيحيين والمسلمين المستنيرين ان يهتموا بالعلم اهتماماً لا تعوقه العقيدة ، وقد تم هذا في نصف البلدان المسيحية ونرجو ان يتم مثله في الاسلام .. »

وقد جرى بين الحكيم وبين رينان وتيوفيل غوتيه وعدد من

الكتاب الفرنسيين ، نقاش آخر حول العنصرية قال هؤلاء فيه ان العالم شطران سامي وآري لكل منهما خصائصه ومزاياه ، وذهبوا الى ان العقل السامي يجمع بين الاشياء متناسبة وغير متناسبة دون ارتباط بينها ، اما العقل الآري فهو يؤلف بين الاشياء بارتباط وثيق ولا ينتقل من امر الى امر إلا بعد تدرج . فشجب الحكيم هذه الآراء واثبت ان التفريق بين العنصرين السامي والآري انما هو ، كالتفريق بين الشعوب ، يرجع في الحقيقة الى العصبية اكثر من رجوعه الى العلم .

— وكانت لجمال الدين مع بعض الكتاب الفرنسيين صلات شخصية ، وقد اعجب به كل من تعرف به وصادقه منهم . ومما قاله رينان فيه : « تعرفت بالشيخ جمال الدين فوقع في نفسي منه ما لم يقع لي إلا من القليلين ، وأثر فيّ تأثيراً قوياً . وقد خيل اليّ من حرية فكره ونبالة شيمته وصراحته وانا اتحدث اليه ، اني أرى أحد معاري القدماء وجهاً لوجه ، واني اشهد ابن سينا أو ابن رشد أو واحداً من اولئك الملحدين العظام الذين ظلوا خمسة قرون يعملون على تحرير الانسانية من الأسار . »

ويبدو من هذا القول ان رينان يصفه بالالحاد ، وقد شايعه في الرأي سليم عنجوري في ترجمته له بديوانه «سحر هاروت» فقال : ان السيد « برز في علم الاديان حتى أفضى به الى الالحاد والقول بقدم العالم .. وان القول بوجود محرك اول حكيم ، وهم نشأ عن ترقي الانسان في تعظيم المعبود على حسب ترقيه في المعقولات » ولكن خالفهما في الرأي كثير من تلامذة الحكيم وفي طليعتهم

الشيخ محمد عبده صديقه الحميم .

— وبعد عام من اقامة جمال الدين في اوربا ، كتب الى محمد عبده ان يوافيه الى باريس ، وكان الامام مقيما في بيروت بعد نفيه من مصر على اثر اخفاق الثورة العرابية واحتلال الانكليز لمصر ، فلم يلبث ان شخص الى العاصمة الفرنسية حيث اسس مع استاذه وصديقه جمعية «العروة الوثقى» واصدرا بهذا الاسم مجلة كان لها دوي بعيد . وكان هدف الجمعية والمجلة ايقاظ الشرق وحثه على النهوض ، وتحريره من الاستعمار وتأسيس الحكومات الدستورية فيه ، وتحقيق الأصلاحات التي تقتضيها حالة العصر في بلاد الاسلام .

وكانت الجمعية سرية ذات منهج سياسي ونظام داخلي شديد ، وعلى كل من انتظم فيها ان يقسم يميناً مغلظة على الاخلاص لمبادئها والتضحية في سبيل اهدافها بكل عزيز . أما المجلة فكانت اهدافها التحريرية تدور جميعها حول هدف عظيم أوحد هو انقاذ الاقطار الشرقية من الاستعباد والاستعمار ، لأن كل قطر منها ان لم يكن قد سقط تحت حكم اهل المطامع ، فالشراك له منصوبة والسقوط قريب ، الا اذا نشطت العقول ، وعمل اولو العزائم ، ولمت الامم الشرقية شعثها ، ووحدت كلمتها ، وطلبت حفظ ملكها بأسبابه ، وحريتها بمؤهلاتها .

ومن أهم ما جرى للسيد جمال الدين وزميله الشيخ محمد عبده وهما في باريس ثلاثة امور :

اولها ان السيد لما يئس من « اقناع » الحكومة الانكليزية بالجلاء عن السودان ، بتعظيم شأن الثورة المهدية في نظرها والتهويل

في خطرها ، ارسل محمد عبده الى مصر متخفياً ، وكان منفياً منها كما علمنا ، كي يسافر الى السودان وينظم حركتها الثورية ، على ان يتبعه السيد جمال الدين اذا نجح في مهمته ، توسلاً الى انقاذ السودان من النير البريطاني ، وتأسيس دولة قومية يعتز بها الشرق وتنقذ شعوبه من الاستعباد . ولا ندري ماذا حدث في هذه الرحلة الخطيرة التي قام بها الامام ، اذ ليس في كل ما كتبه المصلحان واصدقاؤهما عنها الا اشارات سريعة غامضة .

وثاني هذه الامور ان الشيخ محمد عبده سافر الى لندن اجابة لدعوة بعض رجال السياسة الانكليزية ، وجرت بينه وبينهم محادثات طويلة في الشؤون المصرية ، اهمها محادثة مع اللورد هرتنكتون وزير الحربية البريطانية الذي سأل الامام : « الا يرضى المصريون ان يكونوا في أمن وراحة تحت سلطة الحكومة الانكليزية ؟ او لا يرون حكومتنا خيراً لهم من حكومة الاتراك وفلان باشا وفلان باشا * ؟ » فاجابه : « كلا ان المصريين قوم عرب وكلهم مسلمون الا قليلا ، وفيهم من محبي اوطانهم مثل ما في الشعب الانكليزي ، فلا يخطر ببال احد منهم الميل الى الخضوع لسلطة من يخالفه في الدين والجنس ، ولا يصح لحضرة اللورد وهو على علم بطبائع الأمم ان يتصور هذا الميل في المصريين » فقال الوزير : « هل تنكر ان الجهالة عامة في اقطار مصر ، وان الكافة لا تفرق بين الحاكم الاجنبي والحاكم الوطني ، وان ما ذكرته من النفرة من سلطة الاجانب انما يكون في الامم المهذبة !؟ » فأخذت

* يريد الخديو اسماعيل والخديو توفيق .

الشيخ حدة وقال :

« ان النفرة من ولاية الاجنبي ونبذ الطبع لسلطته مما اودع في فطرة البشر ، وليس بمحتاج الى الدرس والمطالعة ، وهو شعور انساني ظهرت قوته في أشد الامم توحشاً كالزولوس الذين لم تنسوا ما كابدتموه منهم في الدفاع عن اوطانهم .

« ان المسلمين ، مهما كانوا وعلى اي درجة وجدوا ، لا يصلون من الجهل الى الدرجة التي يتصورها الوزير ، فان الاميين منهم ومن لا يقرأون ولا يكتبون لا يفوتهم العلم بضروريات الدين ، ومن اجلاها واظهرها عندهم ان لا يدينوا لمخالفيهم فيه ، وان لهم في الخطب الجمعية ومواعظ الوعاظ في مساجدهم ما يقوم مقام العلوم الابتدائية ، وان جميع ما يتلقونه من النصائح الدينية يحذرهم من الخضوع لمن لا يوافقهم ، ويحدث فيهم من الاحساسات الشريفة الانسانية ما لا ينحطون معه عن سائر الامم ، خصوصاً المصريين الذين ينطقون باللسان العربي ويفهمون دقائق ما اودع في ذلك اللسان ، وهو لسان دينهم .

« ان ارض مصر من زمن محمد علي قد انتشرت فيها العلوم والآداب الجديدة على نحو ما هو موجود في بلاد اوربا ، واخذ كل مصري نصيباً منها على قدره ، ولا تخلو قرية من القرى الصغيرة من ان يكون فيها قارئون وكاتبون . والاخبار العمومية توصلها اليهم الجرائد العربية ، ومن لم يقرأ يستنبىء الاخبار من القارئين ، فبهذا اضافوا الى الشعور الطبيعي والتقليد الديني ، محبة وطنية منشؤها التهذيب العمومي ، قوي بها الميلان الأولان ولا اظنهم

يخالفون في ذلك سائر الامم . »

وقد علقت جريدة « العروة الوثقى » على هذه المقابلة واقوال اللورد هرتنكتون فيها ، بعددها الرابع عشر فقالت :

« اين العلماء الأذكياء ، اين الجهلة الاغبياء ، اين الاباة الأعلياء ، اين السفلة الادنياء ، ليرى كل واحد منهم منزلة الشرقيين عند رجال الحكومة الانكليزية ؟ كل ذي شكل انساني وصورة بشرية يدرك ما وراء هذه الاسئلة وما تشفّ عنه هذه الظنون العجيبة .

« هذا اللورد هرتنكتون وزير الحربية الانكليزية يظن ان الجهل يبلغ من المسلمين عموماً والمصريين خصوصاً الى حدٍ سلب عنهم كل احساس انساني ، وانهم في حضيض من الجهل لا يميزون فيه بين الغريب والقريب ، ولا بين العدو والحبيب .

« هذا دليل على ان الانكليز ، الا من انار الله بصيرته ووفقه لفهم الصواب ، يعتقدون ان الامم الشرقية والامة المصرية في درجة الحيوانات السائمة ، والدواب الراعية ، لا تتألم الا من الجوع وفواعل الطبيعة المادية ، وليس لها من الاحساس إلا نوع من الانفعالات البدنية ، ولا تعرف من شؤونها إلا ما به تقوم حياتها الحيوانية ، فتألف راكبها والعامل عليها ويستخدمها في أي عمل من الاعمال الشاقة ما دام يقدم لها طعاماً وشراباً ، وانها تهش وتبش لرؤية من يقدم لها غداءها وعشاءها ، وان كان من أشدّ البلاء عليها بما يسومها من مشاق الاعمال ، فاذا عجزت عن العمل ذبحها وتغذى بلحومها : ألا فاعجبوا !

« ان كانت هذه عقيدة رجال الحكومة الانكليزية في الامم التي يتسلطون عليها فأي معاملة تكون لهم ؟ الا يعاملونها معاملة العجماوات والحيوانات الرتع ؟ بلى ، وهكذا يعاملون ، وهكذا تصرفهم في البلاد الهندية يشهد بأفصح لسان على ما يعملون ، فالمصريون الآن بين امرين افضلها ايسرهما : اما ان يتكاتفوا ويتضافروا ويبذلوا اموالهم وارواحهم في حفظ شرفهم الانساني ومكانتهم العربية ، واداء حق عقيدتهم الدينية ، ويخلصوا انفسهم من عبودية قوم لا ينظرون اليهم إلا كما ينظرون الى البغال والحمير ، وان عمّوا بذلك وجدوا لهم من اخوانهم المسلمين انصاراً ينتظرون الآن حركة منهم وهذا اشرف الامرين . واما ان ينسلخوا عن جميع الخصائص الانسانية ، ويخلعوا حلية الايمان ، ويتبرأ منهم شرف العرب ، وليجعلوا نير العبودية على اعناقهم ، وليقاسموا الحيوانات في حظوظها ، وليستعدوا لكل ذلة ، وليقبلوا كل ضيم ، وهذا اعسر الامرين وادناهما ، وما اظن مصرياً يختاره لنفسه ، ولئن اختاره ، معاذ الله ، فسيذهب الله بهم ويورث الأرض قوماً آخرين ، فان الله غيور على دينه ، غيور على العدل ، منتقم من الضالين ، وانا لله واليه راجعون . »

وآخر الامور الثلاثة التي عرضت للمصلحين الشرقيين في بلاد الغرب ، ان المستر بلانت قد جمع بين السيد جمال الدين واللورد سالسبوري واللورد تشرشل ، للمفاوضة في امر ثورة المهدي في السودان التي كانت يومئذ شغل القوم الشاغل ، لكن التوفيق بين وجهات نظر متناقضة لم يكن مستطاعاً ، اذ اخذ جمال الدين يبين

مواقع الخطأ في سياسة انكلترا نحو دول الشرق، ويفيض في تعداد مظالمها ، فقال له اللورد سالسبوري : « ان بريطانيا تعلم مقدرتك، ونحن نقدر رأيك قدره ونحب ان نسير مع حكومات الاسلام بمودة وولاء ، على قدر ما تسمح لنا به الظروف والأحوال ، لذلك رأينا ان نرسلك الى السودان سلطاناً عليه ، فتستأصل جذور فتنة المهدي وتمهد السبيل لأصلاحات بريطانيا فيه الخ .. » فقال جمال الدين : « تكليف غريب ، وسفه في السياسة ما بعده سفه ! اسمح لي يا حضرة اللورد ان اسألك : هل تملكون السودان ، حتى تريدون ان تبعثوا اليه بسلطان ؟ » .

ثم قال : « .. ان الاصلاح وما تنويه بريطانيا من عمله وطرق ادخاله وما تبحث له من الوسائل ، فعلى سبيل الاستطراد ، والتطفل ، الفت نظرها ، ونظر كبير رجالها حضرة اللورد ، الى ايرلندا وما تعانيه من ضروب البلاء فيما تنشده لنفسها من طلب الاستقلال ، ليتسنى لها معه الاصلاح الحقيقي لبلادهم ، فلماذا لا تجيبون سؤلهم ، وتصلحون امرهم ، وهم اقرب اليكم من حبل الوريد ، وبينكم وبينهم من الجامعات ما هو معدوم لكم في مصر والسودان وغيرهما من ممالك الشرق .. الخ »

فبهت اللورد سالسبوري بهتة رجل فوجىء بصدمة لم تكن بحسبانه ، كأنه كان ينتظر من جمال سجود الشكر للهبة التي يغدقها عليه . وانفض المجلس على جفاء بين الرجلين عظيم ، واشارت الصحف الانكليزية الى هذه المقابلة وما تم فيها ، فايدت صحف الاحرار منها رأي جمال الدين .

وعاد السيد الى متابعة كفاحه في باريس ، ولكن العقبات التي كانت قد اقيمت في البلاد العربية والهندية ، لمنع دخول « العروة الوثقى » اليها ، واشتداد الخطر على كل من يقرأها هناك ، دعا المصلحين الى اغلاق هذه المجلة . فسافر محمد عبده الى بيروت ، وبقي جمال الدين في فرنسا متنقلا بين مدنها ، كاتباً في صحفها ، داعيا المنصفين من ابنائها الى الانتصاف للشرق ، حتى تلقى برقية من ملك الفرس ناصر الدين شاه يدعوه فيها الى ايران ، فرحل اليها في شباط سنة ١٨٨٦ (جمادى الاولى سنة ١٣٠٣) .

العروة الوثقى

•

لخصت مجلة « العروة الوثقى » أهم اغراضها في اول عدد من اعدادها فيما يأتي :

١ – بيان الواجبات على الشرقيين التي كان التفريط فيها موجباً للسقوط والضعف ، وتوضيح الطرق التي يجب سلوكها لتدارك ما فات . ويستتبع ذلك بيان اصول الأسباب ومناشئ العلل التي افسدت حالهم وعمت عليهم طريقهم ، وازاحة الغطاء عن الاوهام التي حلت بهم .

٢ – إشراب النفوس عقيدة الأمل في النجاح ، وازالة ما حل بها من اليأس .

٣ – دعوتهم الى التمسك بالأصول التي كان عليها آباؤهم واسلافهم ، وهي ما تمسكت به الدول الأجنبية العزيزة الجانب .

٤ – الدفاع عما يرمى به الشرقيون عموماً والمسلمون خصوصاً من التهم ، وابطال زعم الزاعمين ان المسلمين لا يتقدمون في المدنية ما داموا متمسكين باصول دينهم .

٥ – إخبار الشرقيين بما يهمهم من حوادث السياسة العامة والخاصة .

٦ - تقوية الصلات بين الامم الاسلامية ، وتمكين الألفة بين افرادها ، وتأمين المنافع المشتركة بينها ، ومناصرة السياسة الخارجية التي لا تميل الى الحيف والاجحاف بحقوق الشرقيين .

وقال جمال الدين ومحمد عبده في أحد اعداد المجلة الأولى : « لا يظن احد من الناس ان جريدتنا هذه بتخصيصها المسلمين بالذكر احياناً ، ومدافعتها عن حقوقهم ، تقصد الشقاق بينهم وبين من يجاورهم في اوطانهم ، ويتفق معهم في مصالح بلادهم ويشاركهم بالمنافع من اجيال طويلة ، فليس هذا من شأننا ولا مما نميل اليه ، ولا يبيحه ديننا ولا تسمح به شريعتنا . ولكن الغرض تحذير الشرقيين عموماً والمسلمين خصوصاً من تطاول الاجانب عليهم والافساد في بلادهم ، وقد نخص المسلمين بالخطاب لانهم العنصر الغالب في الاقطار التي غدر بها الاجنبيون ، واذلوا اهلها اجمعين ، واستأثروا بخيراتها ..الخ » . وقال محمد باشا المخزومي الذي صحب السيد جمال الدين في ايامه الاخيرة : « انه كان شديد البعد عن التعصب نفوراً منه ، وان ذكر المسلمين في اكثر مقاله ، فذلك لانهم العنصر الغالب باكثريته في الشرق ، والملة المساوية ممالكها ومقاطعاتها ، ولهذا اكثر من ايقاظهم وتنبيههم وتقريعهم . والا فهو اكثر الفلاسفة توسعاً بمعنى المساواة ، وميلاً للعمل بها فعلا بين نوع الانسان ، خصوصاً في الحقوق العمومية . »

وقد صدر العدد الاول من « العروة » في ١٣ اذار سنة ١٨٨٤ (جمادى الاولى سنة ١٣٠١) وكان مدير سياستها السيد جمال الدين الافغاني ورئيس تحريرها محمد عبده ، ولم يتح لها ان

تعيش اكثر من سبعة اشهر ، فلم يصدر منها الا ١٨ عدداً ، لكنها استطاعت منذ نشأتهـا ان تحدث دوياً بعيد الصدى ، وكانت كل مقالة منها درساً رائعاً يبسط للشرقيين حقوقهم ، ويعـدد المظالم المحيقة بهم ، ويفضح الدسائس والمؤامرات التي تدبر في الخفاء للقضاء على روح التحرر فيهم ، ويندد بحياة الذل والخمول والجشع التي يحياها كثير منهم ، ويدعوهم الى الاتحاد والتضامن وتناسي كل اختلاف أو ضغينة فيما بينهم لصد عادية المستعمرين عنهم : « لأن الاشتغال بداخل البيت انما يكون بعد الأمن من طروق الناهب ».

وقد حاولت الاوساط الاستعمارية الرجعية في العالم ان تحول دون نشر هذه الجريدة ، بل حاولت الاوساط الانكليزية الاستعمارية منعها عن الصدور منذ تسامعت بفكرة العزم على انشائها . ولمـا اعياها هذا الأمر منعت دخولها الى البلاد الهندية والمصرية ، والزمت الدولة العثمانية بالحجر عليها ، ولكن هذه التدابير التعسفية لم تعجز الاحرار اولي العزم من نقل « العروة الوثقى » من باريس الى كل بقعة تقرأ فيها لغة الضاد ، فكان المفكرون الشرقيون يتهادونها ويجتمعون لقراءتها ، ويتناقشون فيما تنشره من رائـع الحكم ، ثم ينشرون بدورهم ما تلقنوه من تعاليمها واهدافها ، حتى احدثت في فترة وجيزة انقلاباً فكرياً عظيما نقل الطليعة الواعية من الشرقيين ، والعرب خصوصاً ، من طور الى طور .

وابحاث « العروة الوثقى » تنسب الى السيد جمال الدين وان كانت يراعة الامام محمد عبده هي التي دبجتها ببيان رفيع جمع بين الحكمة وفصل الخطاب . وقد كانت هذه الابحاث تدور كلها حول

تحرير البلاد الشرقية عموماً ، وتحرير مصر بنوع خاص ، وبيان المظالم التي تعانيها الاقطار الخاضعة للاستعمار ، والاضطهاد الذي تقاسيه الاقطار الخاضعة للحكم الاستبدادي والامراء الاقطاعيين والمهددة أيضاً ، من جراء هذا الاضطهاد نفسه ، للخضوع للاستعمار ، والاهابة بهذه الأقطار جميعاً الى الكفاح في سبيل التحرر والانعتاق .

ومن قراءة ابحاث « العروة الوثقى » يتبين لنا ان السيد جمال الدين الذي نذر حياته لمحاربة الاستعمار ، وسمى زمنه : زمن الاستعمار ، قد عرف اساليب الاستعمار ودسائسه ومظالمه ومطامعه جميعاً ، وان لم يعرف حقيقته العلمية ، اي الأسباب التي ادت الى ظهوره بالشكل الذي تميز به في العصر الحديث ، والعوامل التي تعمل على هدمه والقضاء عليه ، كي يعرف الاساليب الصحيحة لمكافحته كفاحاً مجدياً . ولذلك رأيناه يتذرع لبلوغ هدفه بكل وسيلة تخطر له ويرجو من ورائها نجاحاً في مقصده ، فينتهج احياناً مناهج غريبة ! من ذلك مثلاً محاولته استغلال حركة محمد احمد الذي ثار في السودان وزعم انه المهدي المنتظر . فقد سعى جمال الدين « لاقناع » الانكليز بالجلاء عن السودان ، بتكبير شأن دعوى محمد احمد للمهدوية وتهويل اخبارها . ومن ذلك ايضاً عدم انتباهه الى قوة الشعور القومي ، واكتفاؤه باثارة الشعور الديني في محاربة المستعمرين ، مما جره الى القاء شعارات غامضة والعمل لأهداف بعيدة التحقيق .

لكن هذا لا ينفي ان السيد جمال الدين كان في النصف الاخير

من القرن التاسع عشر من اكبر خصوم الاستعمار الألداء ، وانه كان السابق الذي نبه بعض الاقطار الشرقية ولا سيما بلاد العرب الى خطر الاستعمار ، وانه سلخ حياته في محاربة هـذا الوباء ، والتحذير منه ، وتأليب الناس عليه ، بما عدّد من مظالمه وبما عرف من اساليبه . وقد شبه الدولة الانكليزية ، في لينها وتملقها وحلاوة وعودها ، بمرض الآكلة يظهره أثره ضعيفاً لا يُحس عند بدئه ثم يذهب في البدن فيفسده ويبيده . وكان يدعو البلاد الشرقية لنجدة مصر ، لأنـه كما قال في العدد الثاني عشر من « العروة الوثقى » ، اذا حصل التساهل في امر مصر انفتح باب المطامع في الشرق لكل دولة صغيرة او كبيرة ، وعزّت بعد هـذا وسائل التلافي . فالاستعمار في رأيه ، وهو الحق ، ليس قضية محلية تنحصر في كل بلد بمفرده . وقد قال في العدد الثامن عشر من « العروة الوثقى » : « يرى الأمير الشرقي الاستعمار في ارض جاره فيظن ان النازلة خاصة بموقعها فيلهو عنها ولا يخشى السقوط فيما سقط فيه غيره ، فيقع في نفس الشرك الذي صيد به جاره ، مَثَلهم مَثَل الاغنام يسوق الجزار منها واحداً بعد واحـد الى المجزرة وسائر القطيع في غفلة عما يجري على آحاده ، يرعى ويرتع آمناً مطمئناً حتى يفـنى » .

وهو يرى أخيراً ، ورأيه هو الصواب ، ان المستعمرات ليست قوة للدولة المستعمرة ، بل هي قوة لاعدائها عليها ، وان خيل في وقت من الاوقات ان الأمر على العكس ، اذ تتفرق قوة الدولة المستعمرة في بسيط الأرض حتى لا يبقى لها في موضع قوة

يخشى بأسها ، ورعاياها في كل صقع في ضجر وتذمر وتململ متعاظم ، ينتظرون في كل آن زحفاً من خارج يعينهم على ما يقصدون من النكاية بحكامهم الظالمين . ولهذا رأيناه فيما بعد ، ينصح السلطان عبد الحميد بالتخلي عن دول البلقان وبمنح الدول العربية استقلالها ، وهي نصيحة ربما توهم عبد الحميد الجنون في قائلها لمّا سمعها منه.

بيد ان اصدق اراء جمال الدين في الاستعمار ما رواه عنه محمد باشا المخزومي في كتابه « الخاطرات » اذ يقول : « ان هـذا الاستعمار لغة واصطلاحاً ، مصدراً واشتقاقاً ، لا أراه الا من قبيل اسماء الاضداد ، فهو اقرب الى الخراب والتخريب والى الاسترفاق والاستعباد منه الى العمار والعمران والاستعمار . لا تسير دول الاستعمار الا الى البلاد الغنية في ثروتها ومعادنها وخصب تربتها ، ومن كان اهلها في الدرك الأسفل من الجهـل ، قد خيّم عليهم الخمول ، لا يبدون حراكاً ولا يقربون عراكاً » .

ثم يروي كيف تنتظم الممالك في سلك المستعمرات عن طريق الفتح « فتصبح أعزة البلاد أذلة ، ويحلّ محـلّ الحرية الشخصية الاستعباد وكمّ الافواه ، وينتصب الميزان ليحاسب من تطرف عينه من الاهلين أو يشخص ببصره أو يلتفت الى ورائه ، ليس لأحد من خيرات بلاده شيء ، وكل الضرائب والضربات والشر والويلات لاهل البلاد وعليهم لا يشاركهم بذلك أحد » .

واما اذا دخل المستعمرون البلاد « من باب الانتصار للأمير ، أو تثبيت الملك ، أو قمع الثورة ، وكانوا في ذلك اللباس ، لباس الاصدقاء الامناء المخلصين ، أو المحبين للشعب ورقيه وتعليمه دروس

الحكم الذاتي ليستغني عنهم ويحكم بلاده بذاته ... فهنـــاك تبقى مظاهر الامور محفوظة ، وبعض التقاليد التافهة مأمونة ، يشكلون للاحكام وادارة مهام البلاد هياكل في الناس ،ويتركون معهم امير البلاد قبة جوفاء يرجع منهـا صدى الصوت فقط ، وليس لهم من الامر الا اتباع الامر لا غير . »

ثم يقول : « ولما كان لحياة الامم والدول ادوار وآجال ، ولحدوثها وتكونها وتعاليها ثم توقفها وانحطاطها اسباب وعوامل ، هكذا وجب ان يكون الاستعمار خاضعاً لتلك النواميس الكونية بمعنى انه يصل الى حد محدود واجل معلوم . وانقضاء اجل الاستعمار انما يتم بزوال الاسباب التي مكنت اهله من التسلط واكرهت الشعوب على الخضوع له » . وهـذه الاسباب في رأيه هي ضعف البلاد المستعبدة ، فمتى تعلمت واتحدت ، تيقظت وقويت ، وبدأت بالتمرد على الغاصب الدخيل « الى ان يعلو الصوت ،ويرتفع السوط ، ويحكم السيف ، ويأتي من بعده حكم العـــادل وهو سبحانه ولي المظلومين » .

وهذا الاعتقاد بان التفاوت بين الشعوب واستعمار دولة لاخرى ، ليس قانوناً ازلياً لا يمكن تبديله ، بل هو حادث وقتي يزول بزوال مسبباته ، كغيره من الحوادث التاريخية والاجتماعية الخاضعـــة لنواميس التطور ، هو اعظم الآراء التي انتهى اليها جمال الدين في هذا الموضوع الخطير .

●

كانت ابحـــاث « العروة الوثقى » تستهدف ايقاظ الشرقيين

وتحريرهم ، وكانت دعوتها في هذا الشأن تصطبغ بالصبغة الاسلامية كما قلنا، لأن المسلمين هم العنصر الغالب في البلاد الشرقية المستعمرة. ولذلك كان شعار الجامعة الاسلامية يتردد في اكثر هذه الابحاث . إلا ان جمال الدين لم يكن يريد من وراء هذا الشعار قيام دولة اسلامية ، كما قد يتبادر الى الذهن ، ولكنه كان يريد تعاون الشرقيين عموماً والمسلمين خصوصاً للوقوف بوجه الاستعمار وتوجيه شعوبهم الى استقلال اوطانهم . قال السيد محمد رشيد رضا : «واما ما اشتهر عن السيد جمال الدين من كونه يريد بالجامعة الاسلامية ان يكون للمسلمين كلهم دولة واحدة، فلم اره في شيء من «العروة الوثقى» ولا في غيره مما كان يرويه عنه الاستاذ الامام وهو اعلم الناس بمقاصده واعماله» . وقال جمال الدين في العدد التاسع من «العروة الوثقى» بصدد حديثه عن الوحدة الاسلامية: «لا التمس بقولي هذا ان يكون مالك الأمر في الجميع شخصاً واحداً ...» ولكن ان يكون «كل ذي ملك على ملكه ، يسعى بجهده لحفظ الآخر ما استطاع ، فان حياته بحياته ، وبقاءه ببقائه ، لأن هذا بعد كونه اساساً لدينهم ، تقضي به الضرورة وتحكم به الحاجة في هذه الاوقات» .

لقد اراد الحكيم ان يجعل من الدين وازعاً وطنياً ، ومن النضال الوطني واجباً دينياً ، فأخذ يعمل على تجديد عقائد المسلمين وتصحيحها ، فيحمل في العدد الرابع على ما ظهر بين المسلمين من اقوام تستروا بستار الدين «وخلطوا باصوله ما ليس منها ،فانتشرت بينهم قواعد الجبر ، وضربت في الأذهان حتى اخترقتها ، وامتزجت

بالنفوس حتى امسكت بعنانها عن الاعمال ، كما يحمل على ما احدثه « السفسطائيون الذين انكروا مظاهر الوجود وعدوها خيالات تبدو للنظر ولا تثبتها الحقائق ، وما وضعه كذبة النقل من الاحاديث ينسبونها الى صاحب الشرع ويثبتونها في الكتب وفيها السم القاتل لروح الغيرة ، وان ما يلصق منها بالعقول يوجب ضعفاً في الهمم وفتوراً في العزائم » .

ومن ثم نراه يخاطب الشعور الديني في المسلمين ليحملهم على مقاومة الاستعمار ، فيقول في العدد الخامس مثلاً : « المسلمون بحكم شريعتهم ونصوصها الصريحة مطالبون عند الله بالمحافظة على ما يدخل في ولايتهم من البلدان ، وكلهم مأمور بذلك لا فرق بين قريبهم وبعيدهم ، ولا بين المتحدين في الجنس ولا المختلفين فيه ، وهو فرض عين على كل واحد منهم ان لم يقم قوم بالحماية عن حوزتهم كان على الجميع أعظم الآثام . ومن فروضهم في سبيل الحماية وحفظ الولاية ، بذل الأموال والأرواح ، وارتكاب كل صعب واقتحام كل خطر ، ولا تباح لهم المسالمة مع من يغالبهم في كل حال من الأحوال حتى ينالوا الولاية خالصة لهم من دون غيرهم » يقول ذلك كي يخلص الى القول : « ... ومع كل هذا نرى اهل الدين في هذه الايام بعضهم في غفلة عما يلم بالبعض الآخر ، ولا يألمون لما يألم له بعضهم . فاهل بلوخستان كانوا يرون حركات المستعمرين في افغانستان على مواقع انظارهم ولا يجيش لهم جأش ولا تكون لهم نعرة على اخوانهم . والافغانيون كانوا يشهدون تداخل المستعمرين في بلاد فارس ولا يضجرون ولا يتململون . وان جنود المستعمرين

تضرب في الاراضي المصرية ذهاباً وايباباً تقتل وتفتك ، ولا ترى نجدة في نفوس اخوانهم المشرفين على مجاري دمائهم بل السامعين لخريرها من حلاقيمهم ، والذين احمرت احداقهم من مشاهدها بين ايديهم وتحت ارجلهم وعن ايمانهم وعن شمائلهم » .

ثم يقذف المسلمين ، في هذا العدد والاعداد الاخرى ، بنيران من اللوم والتقريع فيحمل على الامراء الذين تمكن الطمع من نفوسهم ، فانقلبوا مع الهوى وضاوا عن غايات المجد ، وقنعوا بالالقاب وما يتبعها من اسباب الترف ونعومة العيش ، فاختاروا موالاة الاجنبي ، ولجأوا الى الاستنصار به وطلب معونته على ابناء قومهم استبقاءً لهذا السلطان ، فبددوا شمل امتهم واضاعوا شأنها ، واوقفوا سير العلوم فيها ، واوجبوا الفترة في الأعمال النافعة من صناعة وتجارة وزراعة بما غلّا من ايدي ابنائها .

ويحمل على العلماء ورجال الدين الذين اضعفوا الامة بدلا من ان تنال بهم من المنعة والقوة ما يرد عنها الطامعين فيها خاسئين ، ويتهكم على المتفيقهين منهم بالفاظ الحرية والوطنية والجنسية وما شاكلها يصوغونها في عبارات متقطعة بتراء جوفاء لا تُعلم بدايتها ولا تُعرف غايتها ويكتفون بالوقوف عند هذا الحد !

ويحمل على خائني اوطانهم بمساعدة الاجنبي عليها ، ويرى ان لا علاج لهم الا القتل « ليلحقوا بالخائنين ممن سبقهم ويذوقوا عذاب الهون بما كانوا يكسبون » . ويذهب الى مهاجمة المسلمين في عقيدتهم لجهلهم فرضاً من اعظم فروض الاسلام هو الدفاع عن الوطن ، والاستعداد للاعداء بالقوة ، والحكم بين الرعية بالعدل .

وتجيش به سورة الألم والغضب ، فيجري لسانه وقلمه بما يذكّر بانبياء العهد القديم ، اذ يهتف مرة وكأنه النبي أرميا ينتحب ويتفجع :

« بكائي على السالفين ، ونحيبي على السابقين . اين انتم يا عصبة الرحمة واولياء الشفقة ، أين انتم يا اعلام المروءة وشوامخ القوة ، أين انتم يا آل النجدة وغوث المضيم يوم الشدة ، اين انتم يا خير امة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ، اين انتم ايها الامجاد الانجاد ، القوّامون بالقسط ، الآخذون بالعدل ، الناطقون بالحكمة ، المؤسسون لبناء الامة ؟ ألا تنظرون من خلال قبوركم الى ما أتاه خلفكم من بعدكم ، وما اصاب ابناءكم ومن ينتحل نحلتكم ، انحرفوا عن سنتكم ، وحادوا عن طريقتكم ، فضلوا عن سبيلكم ، وتفرقوا فرقاً واشياعاً حتى اصبحوا من الضعف على حال تذوب لها القلوب أسفاً ، وتحترق الاكباد حزناً ، اضحوا فريسة للامم الاجنبية لا يستطيعون ذوداً عن حياضهم ، ولا دفاعاً عن حوزتهم . ألا يصيح من برازخكم صائح منكم ينبه الغافل ويوقظ النائم ، ويهدي الضال الى سواء السبيل ؟ ! »

ويصرخ مرة أخرى وكأنه يوحنا المعمدان يقذف الخطاة بحمم غضبه :

« ملعون من يخون بلاده لمرض في قلبه . ملعون من يبيع اهل ملته بحطام يلتذ به . ملعون من يمكّن الأجانب من دياره . محروم من شرف الملة الحنيفية من يمهد الطريق لخفض كلمة مواطنيه واعلاء كلمة المستعمرين . ملعون من يختلج في صدره ان يلحق عاراً بامته ليتمم ناقصاً من لذته ... هيهات ، هيهات ! أيظن مريض

القلب انه سيُترك حتى يأتي هذا المنكر ؟ أيظن انه يعيش حتى يتمتع بما تكسب يداه ! »

●

وطويت صفحة « العروة الوثقى » بعد نضال قاس مجيد ، وبعد ان غرست في قلوب الشرقيين بذور الحرية والكفاح في سبيلها ، وتركت في نفوسهم من الأثر الحميد ما لم يتركه قبلها وعظ واعظ ولا تنبيه منبه .

ولعل خير ما يدلنا على اهمية هذا الأثر الذي تركته « العروة الوثقى في قرائها ، الكلمة التي كتبها السيد محمد رشيد رضا بهذا الصدد عن نفسه ، وهي كلمة قيمة ممتعة نحرص على ان نختم بها هذا الفصل لما تتضمنه من عاطفة صادقة وعبرة فائقة وتصوير لعقلية ذلك العصر . قال طاب ثراه ، في الصفحة ٨٤ من الجزء الاول من كتابه «تاريخ الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده » :

« نشأ مؤلف هذا الكتاب نشأة دينية صوفية ، فحُبب اليه النسك والتحنث منذ سن المراهقة بل التمييز . وكنت لا يلذ لي شيء كقراءة اخبار الصالحين والذكر والصلاة . وهديت الى قراءة «إحياء العلوم» قبل طلب العلوم ، فاكببت على مطالعته ، مع مطالبة النفس بالعمل به ، ثم اشتغلت بطلب العلوم ، ولم اترك التصوف ، بل سلكت معه طريقة النقشبندية ، فنفعني التصوف في طلب العلم من جهة ، واضرّ بي من جهة اخرى ، فانني رغبت عند دخول « المدرسة الوطنية » عن درس اللغتين التركية والفرنسية لاعتقادي يومئذ انه ليس في دراستها فائدة دينية ، ولا هما مما يُطلب لوجه الله عز وجل .

« وقد غلب عليّ الزهد وبغض الحكام والمسرفين من اهل الدنيا ، حتى كنت انكر على من اراه منهم كل منكر يأتيه . فأنكرت على والي بيروت مرة اساءة صلاته وهو في مسجد السراي بطرابلس ، حتى لامني على ذلك بعض العلماء الرسميين . وأنكرت على كثير من رجال العدلية وغيرهم ، سيرتهم ، وحملهم للساعات والسلاسل الذهبية ، وغير ذلك .

« ثم اتفق لي ان كنت اقلب في اوراق والدي رحمه الله ، فرأيت عددين من جريدة « العروة الوثقى » فقرأتها بشوق ولذة ، ففعلا في نفسي فعل السحر ، فطفقت ابحث عن سائر الاعداد فوجدت بعضها عند والدي ، ووجدت الباقي عند استاذي الشيخ حسين الجسر الطرابلسي ، فاستنسخت الجميع وقرأته المرة بعد المرة ، فانتقلت بذلك الى طريق جديد في فهم الدين الاسلامي ، وهو انه ليس روحانياً اخروياً فقط ، بل هو دين روحاني جسماني ، اخروي ودنيوي ، من مقاصده هداية الانسان الى السيادة في الارض بالحق ، ليكون خليفة لله في تقرير المحبة والعدل .

« واحدث لي هذا الفهم الجديد في الاسلام ، رأياً فوق الذي كنت أراه في ارشاد المسلمين ، فقد كان همي قبل ذلك محصوراً في تصحيح عقائد المسلمين ، ونهيهم عن المحرمات ، وحثهم على الطاعات وتزهيدهم في الدنيا . وكنت مجداً في ذلك حيث كنت ، حتى اذا ما أردت ترويح النفس في بعض قرى الكورة من لبنان ، أخذت معي مثل كتاب « الزواجر عن اقتراف الكبائر » لاتوكأ عليه في المواعظ التي كنت ابثها في كل مجلس ، فتعلقت نفسي

بعد ذلك بوجوب ارشاد المسلمين عامة الى المدنية ، والمحافظة على ملكهم ، ومباراة الامم العزيزة ، في العلوم ، والفنون ، والصناعات وجميع مقومات الحياة ، فطفقت استعدّ لذلك استعداداً ، وكنت ابحث عن آثار السيد وآثار الشيخ محمد عبده ، وما قيل فيهما وما كتب عنهما . وكنت اناضل دونهما ، وادافع عنهما بحماسة وشدة حتى لم يعد يتجرأ أحد على الطعن فيهما امامي .. الخ » . وقال في مكان آخر : « ... حتى عُرفت بين المعاشرين بعاشق جمال الدين ، وربما دعاني بعض الاصدقاء بالداعي له أو واحد الدعاة ، لا سيما وانا اعدّ له ما يُعدّ عليه ، كدخول الماسونية ، والجلوس في الاماكن العامة ، وطول الاقامة في اوروبا ، وتقريب وارشاد غير المسلمين في البلاد الاسلامية » .

حكيم مصلح واميرٌ مستبد

•

رحل جمال الدين الى ايران وقد سبقته شهرته اليها ، فاستقبله العلماء والعظماء والاعيان احسن استقبال ، واصبح منزله حلقة علم وادب ووطنية عارمة يتحلق فيها انصاره ومريدوه حوله من كل مكان .

وكان الشاه ناصر الدين قد اراد الانتفاع به والاكبار من شأن بلاطه بانتساب رجل مثله اليه ، فعينه وزيراً للحربية واطلق يده في شؤون الجيش ينظمها كما يشاء . ولكنه ما لبث حين رأى اتساع نفوذه وازدياد شوكته ، ولمس فيه الميل الشديد الجريء الى تغيير كل قديم بال في ادارة الحكومة الفارسية ، والى انهاض الأمة ومشاركتها في حكم نفسها - ان خشي منه على سلطانه وخامره ريب في امره ، واخذ يقرب منه حساده وخصومه من « العلماء » الجامدين ، استعداداً لاضعاف شأنه واقصائه عن البلاط .

ولكن جمالا احسّ نفور الامير منه ، وفطن الى ما يبيت له خصومه من مكائد ، فاستأذن في السفر الى روسيا فاذن له الشاه بذلك وقد ارتاحت نفسه لهذا الطلب . فسافر الى موسكو ، ثم انتقل منها الى بطرسبورج عاصمة القياصرة ، واخذ يحاضر في محافلها

ويكتب في صحفها عن سياسة الشرق والغرب .

وقد امتدت اقامته في الروسيا الى اربع سنوات . ولكن هذه الحقبة من حياته تكاد تكون مجهولة كل الجهل ، بل ان السبب الذي حداه الى السفر الى الروسيا دون غيرها ما يزال مجهولا حتى الآن . ولكن الراجح ان غرضه من ذلك كان تحريض هذه الدولة على انكلترا ، ودعوتها الى الوقوف بجانب الاقطار الشرقية في كفاحها ضد الاستعمار . ولا ريب أيضاً في ان وجود ثلاثين مليون مسلم في بلاد الروسيا ، قد شجعه على زيارتها للسعي في اصلاح شؤونهم وانقاذهم من اضطهاد القيصرية التي كانت تسومهم الخسف والهوان . ويؤكد الذين ترجموا لجمال الدين انه قد اجتمع بالقيصر مرات ، فشكا اليه ما يعانيه المسلمون في بلاده من اضطهاد، وطلب منه السماح لهم بطبع كتبهم الدينية ، وان القيصر قد اهتم بطلبه واجابه اليه .

وبينما كان السيد في بطرسبورج قدم اليها الامير ناصر الدين ، واظهر رغبته في الاجتماع به ، فرفض جمال الدين تحقيق هذه الرغبة وتجاهلها . وقد سأله القيصر عن سبب اختلافه مع الشاه ، فاعرب له عن رأيه في الحكومة الشورية ، وضرورة اشراك الامة في حكم نفسها ، وهو امر لا يوافق عليه الشاه ولا يقرّ به . فقال القيصر : « اني ارى الحق في جانب الشاه ، اذ كيف يرضى ملك من الملوك ان يحكمه فلاحو مملكته ؟ » فاجاب جمال الدين : « اعتقد يا جلالة القيصر ان الملايين من الرعية اذا كانت اصدقاء للملك خيراً من ان تكون اعداء له تترقب الفرص للانتفاض عليه ، وتكمن في

صدورها سموم الحقد ونيران الانتقام». فاربدّ وجه القيصر، وقام مودعاً جمال الدين بجفاء، ثم اوعز الى رجاله بان يسرعوا باخراجه من روسيا متلطفين، مخافة ان تلاقي بذور الخير التي ينثرها، أرضاً خصبة في بلاده، فيثور شعبه على جوره وطغيانه.

واتفق ان فتح حينذاك معرض باريس لسنة ١٨٨٩، فشخص جمال الدين الى العاصمة الفرنسية. وكان الشاه قد سبقه اليها ليشاهد المعرض، فالتقيا في مونيخ عاصمة بافاريا، بينما كان الامير عائداً من باريس والحكيم في طريقه اليها.

ويبدو ان ناصر الدين كان ما يزال مصراً على ضم السيد الى حاشيته، معتقداً ان في استطاعته ترويضه واغراءه وتسييره وفق ما يريد، لاسيما وقد القى عليه فيما يزعم درساً يعلمه طاعته والخضوع له. فلما التقيا في مونيخ، الحّ عليه بمرافقته والعودة معه الى فارس، فأبى اول الامر وأصرّ على مواصلة طريقه الى باريس لمشاهدة معرضها، ولكن الامير اشتد في الالحاح عليه وكان يقول لمرافقيه على مسمع منه ان جمال الدين هو رجل العالم السياسي الحربي الجدير بان يكون رئيس وزارة ويقوم بتدبير الشعب، فاعتقد الحكيم ان الامير قد اقتنع بخطأ الموقف السابق الذي وقفه منه، وانه سيطلق هذه المرة يده في شؤون البلاد ليحقق لها ما هي بحاجة اليه من الاصلاح، فنزل عند رغبته وعاد معه الى طهران.

وما كاد جمال الدين يستقر في عاصمة الفرس، ويجدد صلاته الوثيقة بالاوساط العلمية والسياسية فيها، حتى أطلع الشاه على رغبته في وضع دستور تدار البلاد بهديه وتجري الأحكام في نصابه، فلم تثر هذه

الفكرة اعتراض الامير بادىء الأمر بل مال الى الموافقة عليها، ولكنها اثارت اصحاب الافكار العتيقة والاقطاعات الكبيرة من اعوانه ورجال حاشيته ، اولئك الذين يستبدون بالبلاد ويديرون الدولة وفق اهوائهم ، فاعلنوا حرباً شعواء على جمال الدين ، واقنعوا ناصر الدين بان الامة الفارسية لم تتأهب بعد لمثل هذا الاصلاح ، وان الدستور يقيد سلطة الشاه وربما كان سبباً في تقويض عرشه .

فاستدعى الشاه جمال الدين وسأله عن مضمون الدستور الذي يُعدّه فأطلعه عليه ، فاجابه : « أيصح أن أكون يا حضرة السيد ، وانا ملك ملوك الفرس ، كأحد أفراد الفلاحين ؟ » فأجابه السيد بقوله : « اعلم يا حضرة الشاه ان تاجك وعظمة سلطانك وقوائم عرشك ، ستكون بالحكم الدستوري أعظم وأنفذ وأثبت مما هي عليه الآن . وان الفلاح والعامل والصانع في المملكة ، يا حضرة الشاه ، أنفع من عظمتك ومن امرائك . واسمح لاخلاصي ان أؤديه صريحاً قبل فوات وقته : لا شك يا عظمة الشاه انك رأيت وقرأت عن امة استطاعت ان تعيش بدون ان يكون على رأسها ملك ، ولكن هل رأيت ملكاً عاش بدون امة ورعية ؟ »

فغضب الشاه على جمال الدين ، وتنكر له وتخوف منه ، ودفعه على التمادي في هذا الموقف العدائي معارضة السيد للنفوذ الاجنبي المتوغل في ايران عن طريق المشاريع الاقتصادية الاستعمارية ، فأخذ يترقب سانحة ليبطش به .

واحس الحكيم بالدسائس التي تحاك من حوله ، فذهب الى بلدة قريبة من العاصمة تضم ضريح عبد العظيم وهو احد كبار الائمة ،

ومقامه حرم من دخله كان آمناً ، فمكث هناك سبعة أشهر كان مريدوه يختلفون اليه في اثنائها جماعات غفيرة فيخطب فيهم منددا بمثالب الشاه ، وبتواطؤه مع الاجانب على نهب بلاده ، داعياً اياهم الى خلعه ، مرشداً الناس إلى حقوقهم المهضومة وحرياتهم المسلوبة . فضاق به الامير ناصر الدين ، وانتهز فرصة مرض طارىء حلّ به وانقطع تلاميذه عن الاختلاف اليه في خلاله لملازمته فراشه وتوقفه عن القاء دروسه ، فوجه اليه خمسمائة فارس مدججين بالسلاح فانتزعوه من فراشه . قال : « وسحبوني على الثلج الى دار الحكومة بهوان وصغار وفضيحة لا يمكن أن يتصور دونها في الشناعة ... ثم حملني زبانية الشاه ، وانا مريض على بردون ، مسلسلاً ، في فصل الشتاء وتراكم الثلوج والرياح الزمهريرية ، وساقتني جحفلة من الفرسان الى خانقين » على الحدود العراقية .

وما كاد الشاه يتخلص من جمال الدين حتى اخذ يتاجر بخيرات امته ، فباع للبارون يوليوس لوثن امتياز تأسيس بنك شاهاني في ايران واصدار اوراق النقد باسم الدولة ، وامتياز استخراج المعادن من جميع المناجم الايرانية ، وامتياز احتكار التنباك بشروط بخسة . فاذا بجمال الدين يثير عليه حرباً شعواء من مدينة البصرة في العراق التي التجأ اليها بعد نفيه من ايران ، فيكتب في الصحف ويخطب في المنتديات عن اسراف ناصر الدين ، وانكبابه على الشهوات ، وانفاقه اموال الرعية بغير حق . ويرسل الى الحاج ميرزا محمد حسن الشيرازي كبير مجتهدي الشيعة كتاباً مطولاً يعدّد فيه مساوىء الحكم في ايران ، وتدهورها الى درك البؤس والفاقة ، ومما جاء فيه :

« ايها الحبر الاعظم ان الملك قد وهنت مريرته فساءت سيرته وضعفت مشاعره ، فقبحت سريرته ،وعجز عن سياسة البلاد، وادارة مصالح العباد الخ ... » الى ان يقول : « ثم انه باع الجزء الاعظم من البلاد الايرانية ومنافعها لأعـــداء الدين : المعادن ، والسبل الموصلة اليها ، والطرق الجامعة بينها وبين تخوم البـلاد ، والخانات التي تبنى على جوانب تلك المسالك الشاسعة التي تتشعب الى جميع ارجاء المملكة، وما يحيط بها من البساتين والحقول ، ونهر الكرون والفنادق التي تنشأ على ضفتيه الى المنبع ، ومـا يتبعها من الجنائن والمروج ، والجادة من الأهواز الى طهران ، وما على اطرافها من العمارات والفنادق ، والبساتين والحقول ، والتنباك وما يتبعه من المراكز ومحلات الحرث ، وبيوت المستحفظين والحاملين والبائعين، انى وُجد وحيث بُنيت ، وحكر العنب للخمور وما تستلزمه من الحوانيت والمعامل والمصانع في جميع اقطار البـــلاد ، والصابون والشمع والسكر ولوازمها من المعامل ، والبنك ، وما ادراك مـا البنك ، هو اعطاء زمام الاهالي كلية لعدو الاسلام واسترقاقه لهم واستملاكه اياهم وتسليمهم له بالرئاسة والسلطان. ثم ان الخان البليد أراد ان يرضي العامة بواهي برهانه فحنق قائلاً : ان هذه معاهدات زمانية ومقاولات وقتية لا تطول مدتها ازيد من مائة سنة ! الخ..»

وكانت نقمة الشعب الايراني على اعمال الشاه تتعاظم وتتفاقم ، فأذكت اقوال جمال الدين هذه النقمة وفجّرتهـا . فأرسل الحاج ميرزا حسن الشيرازي الى الامير كتاباً قال له فيه ان اعطاء الامتيازات وبيع حقوق الأمة للأجانب ، من الأمور التي يحرّمها

الدين وتأباها الشرائع والقوانين ، وايده في ذلك علماء الأمة ومفكروها الأحرار ، ولكن ناصر الدين لم يسمع لهم نصحاً ولم يرع لهم جانباً ، بل اخذ يعتقل كبار الوطنيين ويضطهدهم ، فهاجت تبريز ثم تبعتها اصفهان وشيراز ، ولجأ المجتهد الاكبر الى سلاح الشرع فأصدر فتواه الشهيرة بتحريم التنباك ، واذا بالايرانيين جميعاً يجيبون دعوته ويلبون نداءه ، فيمتنعون عن تدخين التنباك على شدة تعلقهم به ، فاسقط في يد الشاه ، وذهبت محاولاته في سبيل تحطيم مقاومة الامة ادراج الرياح ، وعبثاً حاول تهديد مقام الحاج ميرزا الشيرازي فان المجتهد لم يزدد إلا تمسكا بفتواه ، حتى اضطر الى الاذعان لارادة شعبه ، فاتفق وشركة الاحتكار على الغاء الامتياز الممنوح للمستر تالبوت بعد ان دفع لها نصف مليون ليرة تعويضاً على الغاء الاتفاق ، فكان ذلك صدمة قوية للنفوذ الانكليزي في إيران .

لم يكتف جمال الدين بهذا النجاح الذي احرزه الشعب الايراني على اميره الذي يفدحه بنيره ، بل أصرّ على متابعة نضاله حتى يتحطم هذا النير تماماً . وكانت صحته قد تحسنت في البصرة ، فشخص منها الى لندن ، حيث ساهم في تحرير مجلة شهرية اسمها « ضياء الخافقين » تصدر بالعربية والانكليزية ، واخذ يكتب فيها بتوقيع السيد الحسيني مقالات تشعّ سطورها ناراً ونوراً ، حمل فيها حملات قوية على مظالم الحكم الاستبدادي والاقطاع في مصر وايران . وقد كتب في العدد الاول من هذه المجلة الذي صدر في شباط سنة ١٨٩٢ دراسة عن « احوال فارس الحاضرة » نقتطف

منها المقاطع التالية لأهميتها التاريخية :

« ... الحكومة قهرت الشرع فأبادته ، وكرهت النظام المدني فمجته ، وازدرت بناموس العقل والفطرة فطمسته ، فلا يسود فيها الا الهوس ، ولا يأمر إلا الشره ، ولا يقوم بالامر الا القهر والزور ولا يحكم الا السيف والكي والسوط ، يلذها سفك الدماء ، وتباهي بهتك الاعراض ، وتعجب باستلاب أموال الأرامل والايتام ، فلا أمان في تلك البلاد ، وان قاطنيها لا يرون وسيلة لصون الحياة من انياب الظلم إلا الفرار .

« قد هرب خمس الايرانيين الى الممالك العثمانية والبلاد الروسية وتراهم يجولون في الازقة والاسواق ، بين حمال وكناس وزبال وسقا . وهم برثاثة ثيابهم وكلوحة وجوههم وخساسة حرفتهم يستبشرون بالنجاة ويشكرون الله على بقية الحياة ...

« لا حدّ في الاقطار الايرانية للضرائب والجبايات والخراج والمكوس . ان الجرائم ليست لها حقائق احرزها الشرع وحكم بها العقل . والجزاء لا يحده حصر . كل هذه تحت سلطان الهوس والشره والقهر . لا دستور للحكومة ولا نظام ولا قانون . كل يفعل ما يقدر عليه وتدعو شهوته اليه ، ولا رادع لقضاء الحاكم ولا مانع لحكمه ، يأخذ الجار بالجار ، ويدمر قرية بذنب يدعيه على رجل ولا ذنب له ، كل مسؤول لديه عن الكل ...

والحاكم يقدم للشاه على حسب عظم الحكومة وصغرها تقدمة « بيش كش » ويلتزمها على نفسه كل سنة شكراً لتوليته ، ولا شهرية له ، ثم انه يأخذ من كل من يستصحبه لخدمة الحكومة أو

خاصة شخصه ، من مدير وكاتب ومعاون وشرطي وجلاد وطباخ وفراش وسائس وبغّال ، مبلغاً جزافاً لاستخدامه ، ولا شهرية لهؤلاء أبداً . وهذه القطيعة الضارية والضباع الجائعة تثب فجأة على البلاد فتفترس وتنهش وتبلع وتدمر ، ولا شفقة تكفّ ولا عقل يزجر . فالويل كل الويل لقوم قضت الاقدار عليهم بحكومة جائرة وحشية كهذه ...

« وان الحاكم واتباعه للاستحصال على ما تقدوه اولا ، وما التزموا على ذمتهم ، لا يدعون في مدة الحكومة وهي غير معلومة ، عملاً شنيعاً وفعلاً فظيعاً وأمراً بشعاً إلا ويرتكبونه .. يعلقون النساء بشعورهن ، ويضعون الرجال مع الكلاب العاقرة في الجوالق ، ويسمّرون الآذان على الواح من الخشب ، ويدخلون زماماً في العرنين ويديرون ذاك المظلوم بتلك الهيئة المحزنة في الازقة والأسواق ، وان أهون العذاب عندهم الكي والضرب بالسياط .

« وان الحكومة الايرانية لا تموّن العساكر ، وليست لهم شهرية ولا جراية ، فانما تكلهم الى قدرتهم في الغصب وحذقهم في السرقة . فتدبّر فيما تكابده الاهالي وتقاسيه من هذه الحكومة الجائرة الحمقى ... الخ . »

وكتب في العدد الثاني ، وهو عدد آذار سنة ١٨٩٢ مقالاً استهله باسماء كبار العلماء والفقهاء في ايران ، موجهاً خطابه اليهم ، داعياً اياهم الى خلع « الشاه الخارية* الطاغية » الذي طفق منذ تولى الملك « يستلب حقوق العلماء تدريجاً ويخفض شأنهم ويقلل نفوذ

* الخارية : الافعى التي كبرت وصغر جسمها ، وهي اخبث الافاعي .

كلمتهم ، حباً بالاستبداد بباطل امره ونواهيه ، وحرصاً على توسيع دائرة ظلمه وجوره » حتى « خلا له الجو فقهر العباد ، واباد البلاد ، وتقلب في اطوار الفظائع ، وتجاهر بانواع الشنائع ، وصرف في اهوائه الدنية وملاذه البهيمية ما مصه من دماء الفقراء والمساكين عصراً ، وما نزح من دموع الارامل والايتام قهراً .. الخ . »

وقد كان لمقالاته ومحاضراته ، صداها العظيم في بلاد الفرس ، اذ أهاجت جماهير الشعب وجماعات العلماء والمفكرين ، وفتحت عيونهم على المظالم التي تعانيها بلادهم ، وقوّت عزائمهم في الكفاح لازالتها . وشعر الامير ناصر الدين بالخطر الذي بات يحدق به ، فارسل سفيره في لندن الى السيد يسترضيه بما شاء من الأموال ، ولكن الحكيم ابى أن يمسّ مال الظلم ، وقال بابائه وعزة نفسه وصلابته في الحق : « والله لا أرضى الا ان يُقتل الشاه ويبقر بطنه ويوارى في القبر ! »

ويقول الامير شكيب ارسلان ان الشاه ناصر الدين لما اعيته الوسائل في استرضاء جمال الدين ، بعث الى عبد الحميد يرجوه استقدام السيد اليه ووضعه تحت مراقبته أماناً من شرّ غوائله . وفي الواقع ان جمال الدين ما لبث ان تلقى بواسطة رستم باشا سفير تركيا في لندن ، كتاباً من المابين الهمايوني يدعوه فيه الى الاستانة ، فاعتذر بانصرافه الى الكفاح في سبيل بلاده ، ولكن كتب المابين ما زالت تترى ملحة عليه في الدعوة ، مبالغة في الرجاء ، حتى غادر لندن الى الاستانة سنة ١٨٩٢ وهو في سن الرابعة والخمسين ، وفي نيته الاقامة فيها بضعة ايام والعودة بعد ذلك الى عمله .

فان صح ان الشاه ناصرالدين هو صاحب الفكرة في دعوة جمال الدين الى العاصمة العثمانية ، فلا ريب في انها قد وافقت هوى من قلب عبدالحميد ليقينه من ان ضم هذا الحكيم العظيم الى حاشيته يعينه على تحقيق مطامعه البعيدة ، ويُظهره امام العالم الاسلامي بمظهر السلطان الذي يرعى العلم والعلماء ويقدر المصلحين والمفكرين ، كما فعل معه الخديو اسماعيل والشاه ناصر الدين . فضلاً عن انه أراد من ناحية اخرى ان يقطع عليه طريق التعاون مع احرار الاتراك الذين كانوا قد هاجروا الى باريس واخذوا يقومون فيها بالدعوة الى الحكم الدستوري ، واجتمع بهم السيد فاعجب بهم وسمى عصبتهم بالجمعية الصالحة .

ومن طريف ما رواه السيد انه لما وصل الى الاستانة كان في انتظاره ياور السلطان موفداً من المابين لاستقباله ، فسأله : « اين الصناديق يا حضرة السيد ؟ » فأجاب : « ليس معي غير صناديق الثياب وصناديق الكتب » قال الياور : « حسناً فدلني اذا امرت على مكانها » فأومأ السيد الى صدره قائلاً : « صناديق الكتب هنا ! » وأشار الى جبته قائلاً : « وهذه صناديق الثياب ! » . فقد كان الحكيم لأول عهده بالنفي يستصحب جبة ثانية وسراويل غير التي يرتديها ، فلما توالى النفي عليه صار يستثقل الجبة الثانية فيترك التي عليه الى ان تخلق فيستبدلها من غيرها .

استُقبل السيد في الاستانة استقبالاً حافلاً ، وقرّبه السلطان منه ، وباحثه في شؤون الدولة وفي احوال المسلمين ، زاعماً له انه على استعداد لتبني مشاريعه الاصلاحية وآرائه التحريرية ، وأعدّ له

قصراً فخماً مؤسساً بافخر الرياش ، واجرى عليه راتباً شهرياً قدره خمس وسبعون ليرة عثمانية . فخيل للحكيم انه بالغ هذه المرة ما ينشد لبلاد الشرق من صلاح وحرية . ولكن الايام ما لبثت ان اخلفت ظنونه وعلمته للمرة الاخيرة ، ان النهضة التي يرجوها لا يمكن ان تتحقق عن طريق القصور والاوساط التي عاث فيها الفساد والانحلال والتفسخ ، بل بوثبة شعبية تشترك فيها جميع القوى الحية والعناصر النشيطة النامية المتطلعة الى الانعتاق .

وكان جمال الدين لايني وهو في الاستانة ، يواصل حملاته الشديدة على الامير ناصر الدين لتحرير بلاده من نيره وجوره ، فاستدعاه عبد الحميد يوماً وقال له : « ان سفير العجم رجاني ان اطلب منك الكف عن الوقيعة بالشاه ، وبناء على آمالي فيك وعدته بانك تكف عنه » فأجابه الحكيم : « لم يكن في نيتي أن أترك الشاه حتى انزله في قبره ، ولكني من أجلك سأعفو عنه » . فقال السلطان : « بحق يخاف منك الشاه خوفاً عظيماً » . ومنذ ذلك اليوم سرى الخوف من جمال الدين الى قلب السلطان ، الا انه ظل يلاطفه ويجامله ويسترضيه . ولكن هذه المصانعة لم تكن لتخفي عن جمال الدين حقيقة عبد الحميد ، فكان اذا خلا برفاقه قال لهم : « ان هذا السلطان سلّ في رثة الدولة » !

وفي أحد الايام أقبل الى الاستانة رجل من الفرس يدعى ميرزا رضا الكرماني ، كان قد سجن مع جمال الدين لما اعتقله الشاه في مقام عبد العظيم . والتقى هذا الرجل استاذه القديم ومكث معه مدة يتحدثان عن احوال ايران ومظالم ناصر الدين ، ولم يعرف احد

على وجه الدقة ما دار في تلك الأحاديث . ولكن الذي عرفه الجميع ان رضا الكرماني قد غادر الاستانة وفي نفسه على الشاه حقد عظيم ، وما هي الا أشهر قليلة حتى انقض على ناصر الدين وهو في جامع عبد العظيم بطهران فطعنه بمديته وهو يهتف : « خذها من يد جمال الدين ! » فوقع الامير صريعاً لتوّه ، واستراحت ايران من شره وجوره .

ولما سمع الحكيم بمصرع الشاه ناصر الدين عرته موجة من الغبطة ، وقال لأصحابه : « قد تحقق الآن ان الامة الفارسية لم تمت ، وانها امة لم تنقطع منها الآمال ، لأن الامة التي يقوم من ابنائها من يأخذ بثأرها ويفتك بالطاغي الذي على رأسها ، لا تكون قد فقدت جراثيم الحياة » . ووقع في يده عدد من مجلة الاليستراسيون الفرنسية قد نشرت فيه صورة رضا الكرماني مصلوباً والناس من حوله يتألمون عليه فردد قول الشاعر :

علو في الحياة وفي الممات لعمرك تلك احدى المعجزات

وقال لأخوانه : « انظروا كيف علقوه عالياً عليهم حتى يكون ذلك رمزاً الى انهم كلهم من دونه ! »

ولا ندري كيف نفسر موافقة السيد جمال الدين على فكرة الاغتيال السياسي ، وارتياحه لها ، وهو من اعرف الناس بأن قتل الحاكم الجائر المستبد لا يزيل الجور ويمحو الاستبداد ، وربما خلفه حاكم اكثر منه استبداداً وجوراً ، وان الفساد لا يعالج الا بازالة علته من جذورها واستئصال العوامل التي تمده باسباب البقاء .

في بلاط عبد الحميد

كان السلطان عبد الحميد قد عرض على السيد جمال الدين منصب شيخ الاسلام ، فأبى وطلب ان يُعهد اليه بعمل اساسي يستطيع معه تغيير النظام القائم في البلاد العثمانية واقرار الحكم الدستوري توسلاً لتحقيق هدفه الذي عرفناه ، وهو انهاض دولة اسلامية من ضعفها كي تلحق بالأمم الراقية القوية وتجمع حولها بقية الامم الاسلامية أو الشرقية في جبهة موحدة ضد الاستعمار الغربي الزاحف على الشرق . فزعم عبد الحميد ان زمنه بعوائله المختلفة لا يسمح بذلك الاصلاح ، وقال له : « عذرتك على عدم القبول ، فاعذرني اذا لم اقدم على التغيير بسرعة لا تتناسب مع الزمان والمكان » .

ومن ثم بدأت العلاقات تفتر بين الرجلين وتتراخى ، اذ أحبط كل منهما أمل الآخر فيه ، واخذت هذه العلاقات تتحول مع الأيام الى جفاء ظل يتعاظم شيئاً فشيئاً حتى كان مصرع الشاه ناصر الدين بيد تلميذ من تلاميذ السيد ، وهتاف القاتل وهو يطعن الأمير : « خذها من يد جمال الدين » وثناء هذا على قاتل الامير ثناء عظيما على ملأ من الناس ، فترك ذلك كله أثراً كبيراً في نفس عبد الحميد ، فشدد جواسيسه مراقبتهم عليه ، واحاطوه بسياج من العيون

والأرصاد .

ومن طريف ما يروى ان السيد كان يركب عربته في اصيل كل يوم ، ويذهب بها الى متنزه الكاغد خانة ، ففطن الى جاسوس كان يتبعه الى هناك ماشياً ، فقال لجماعة السلطان في المابين : « انكم اعطيتموني مركبة وجعلتم لي جاسوساً بغير مركبة ، فاذا انا اسرعت بعربتي طفق يعدو ورائي وهو يلهث كالكلب ولا يدركني فهلا رحمتموه فاعطيتموه عربة ليدركني انى سرت ! »

ومما كان يشجع عبد الحميد على اضطهاد السيد جمال الدين على هذا الغرار ، موقف ابي الهدى الصيادي من الحكيم ، اذ كان يحسده ويتوهم انه ينافسه على مركزه في الدولة ، فيدأب كعادته على الوسوسة في شأنه ، وجعله موضع الظنة ، واتهامه في دينه ، والطعن في نسبه ، والسعي في ايذاء كل من يذكره بالخير اينما كان من بلاد الدولة العثمانية . وقد كتب مرة الى الاستاذ رشيد رضا صاحب جريدة « المنار » : « اني أرى جريدتك طافحة بشقاشق المتأفغن جمال الدين الملفقة ، وقد تدرجت به الى الحسينية التي كان يزعمها زوراً ، وقد ثبت في دوائر الدولة رسمياً انه مازندراني من اجلاف الشيعة ... وهو مارق من الدين كما مرق السهم من الرمية » !

ومن الامور الكثيرة التي أغضبت السلطان على السيد جرأته الادبية وافكاره الحرة التي لا تقف امامها حدود ، بحيث كان اذا اجتمع بالسلطان لم يتقيد بما درج عليه رجال البلاط من قيود ثقيلة ومراسيم سخيفة ، بل يطلق نفسه على سجيتها كأنه في حضرة صديق له يساويه في المكانة وربما فاق عليه . وقد دعاه رئيس القرناء

مرة ، بعد اجتماع ضمه وعبد الحميد اباح لنفسه فيه من التصرف ما استعظمه الحاضرون وانكروه ، وقال له متلطفاً : « يا حضرة السيد ، ان اجلال السلطان لحضرتك لم يسبق له مثيل ، وقد رأيناك اليوم تخاطبه بلهجة غريبة ، وانت تلعب بالسبحة في حضرته ! » فقال جمال الدين : « سبحان الله ، ان جلالة السلطان يلعب بمقدرات الملايين من افراد الأمة على هواه وليس من يعترضه منهم ، أفلا يكون لجمال الدين حق في ان يلعب بسبحته كيف يشاء ! » فغادره رئيس القرناء مهرولاً وكأنه يودّ لو لم يسمع هذه الجملة أو يتظاهر بعدم سماعها ، إذ ربما قاده مجرد سماعه اياها الى حتفه .

وروي انه أراد ان يرسله مرة الى اوروبا في امر سياسي ثم عدل عن ذلك ، فأراد السيد مقابلته فقيل له انه مشغول ، فقال : « لا أعود الى مقابلته ! » . ثم أراد السلطان أن يقابله فأرسل في طلبه فامتنع عن الحضور ، وقال : « هذه بتلك ! » ولكن رسل السلطان اقنعوه بأن سيدهم لم يمتنع عن استقباله إلا لكثرة اعماله وتقيّده بالمواعيد ، فذهب الى المابين وقابله السلطان بجفاوة بددت بعض غضبه .

وكذلك غضب جمال الدين واراد مغادرة الآستانة ، لما قيل للسلطان ان في بيت السيد مقادير كبيرة من الديناميت ، وكان عبد الحميد يخاف الديناميت وقد حرّم ذكر هذه الكلمة في مملكته ، فأمر رجاله بتحري دار الحكيم ، فلم يجدوا فيها شيئاً فاستحضره وقبّله معتذراً منه قائلاً له : « لا يفرّق بيني وبينك إلا القضاء المحتوم » واثنى عليه ثناء عظيماً ، وقال له « احب ان اجعل وطنك الاستانة

اذ لا وطن لك » ، ثم انزله في زورقه الخاص فتنزها معاً في بحيرة بلدز ، وعرض عليه ان يزوجه إحدى حظايا قصره فأبى .

قال الشيخ رشيد رضا : «وقال الحكيم في بعض مجالسه انني لو تزوجت لكان زواجي أغرب عند العارفين بحقيقة امري في مصر ، من ذهاب الشيخ عليش* بتلاميذه الى احـــد ملاهي الازبكية وتعاطيهم كؤوس البيرة جهراً . وقد ذكرت ذلك للاستاذ الامام فقال لي : انه كان قد فقد داعية الزواج والقدرة عليه ، بانصراف الذهن عنه الى ما علق به من عظائم الأمور ! »

ولا نعلم مبلغ ما في هذا التعليل من الصحة ، ولكن الذي نعلمه ان المرأة لم تذكر في تاريخ جمال الدين قط ، سواء اكانت اماً أو اختاً ، أو زوجة أو صديقة . بل لسنا نجد في آثاره ما يتعلق بالمرأة إلا اشارة الى خطاب القاه في النساء بقاعة زيزينيا بالقاهرة لا ندوي الموضوع الذي عالجه فيه ، والا حديث له في مجلس بالاستانة دار حول مساواة المرأة بالرجل والسفور والحجاب قال فيه ان المرأة تساوي الرجل في تكوينها ، والتفاوت الذي بينهما لم يأتِ إلا من باب التربية واطلاق السراح للرجل وتقييد المرأة للبيت ولتربية الجيل ، ومهمتها في هذا أهم وأسمى مما يقوم به الرجل في كثير من الصناعات ، ويخطىء من يطلب مساواة الرجل بالمرأة في كل شيء ، فلكل وظيفته ، وعلى تعاونهما ، كل في عمله ، يقوم المجتمع ، ولا مانع ان تعمل المرأة في الخارج اذا فقدت عائلهـــا أو اضطرتها

---

* احد علماء الازهر المترمتين وكان يحمل عكازته ويروغ بها على تلامذة الافغاني وهم يدرسون الفلسفة في احدى زوايا الازهر .

ظروفها الى ذلك ، ولكن بنية صالحـــة وذيل طاهر . ثم قال : « وعندي ان لا مانع من السفور ، اذا لم يتخذ مطية للفجور » .

ولم نقف على أثر آخر له أو عنه ، فيـه ذكر للمرأة . ويلاحظ الاستاذ مصطفى عبد الرازق ان الامام محمد عبده نفسه لم يكتب شيئاً يتصل بالمرأة الا في غياب السيد جمال الدين عن مصر !

وفي تلك الايام وفد على الاستانة الخديو عباس الثاني ، فرغب في مقابلة جمال الدين وطلبه ، واستأذن في ذلك السلطان فأبى هذا أن يأذن بالجمع بينهما ، بل ارسل الى جمال الدين من يلحّ عليه بألا يفعل ، لانه تخوف من هذه المقابلة كثيراً . فقال جمال الدين لرسول الخديو في حجرة رئيس القرناء في المابين وعـلى مسمع من الملأ الموجود : « انني كضيف ، أسير المضيف جلالة السلطان في منزله ، ولكن لي مسرحـاً كل يوم في الكاغدخانة » . فبينما جمال الدين يتنزه ذات يوم في هذا المكان ، منفرداً على ربوة ، اذ وقفت عربة مطهمة ونزل منها رجل تقدم نحو السيد وابتدره بالتحيـة ، فأجابه جمال الدين عليها وسأله : « من اخاطب ؟ » فقال : « بحكم عباس حلمي » . ثم اخذ الامير يتودد الى الحكيم ويبدي له اعجابه به ويدعوه الى زيارة مصر في ايامه معرباً عما له في قلوب المصريين من محبة عظيمة .

فوجد الجواسيس في هذا الاجتماع فرصة لا يجود الدهر بمثلها ، واقبلوا على تحرير التقارير ورفعها الى عبد الحميد ، زاعمين له ان السيد جمال الدين قد تعاهد مع الخـــديو على ان يؤسس له دولة عباسية ! وانه قد طلب تأميناً من الخديو ان لا تكون عاقبته بعد

ان يحقق هذا الامر ، كما كانت عاقبة مسلم الخراساني مع العباسيين ، وانه قد أقرّ للخديو بأن سوريا لمن حكم مصر بمنزلة اللازم والملزوم وهي مفتاح العراقين . وغير ذلك من الترّهات التي كانت في ذلك العهد خير وسيلة لاكتساب الاموال من سراي يلدز » .

وشاع في الناس ان السلطان قد غضب على جمال الدين ، وانه لن يلبث حتى يقضي عليه ، وجمال الدين يضحك لهذه الاشاعات ولا يجيب عليها ، حتى دعاه عبد الحميد لمقابلته . فلما اجتمع به أقبل عليه وأدناه وحادثه طويلاً في شؤون شتى ، حتى اذا انتهى الحديث من كل ما أراده السلطان في ظاهر الأمر وأوهم محدثه أنه سيبارح المكان ، قال : « هيه ! اجتمعت مع حضرة الخديو في الكاغدخانة ؟ » فاجاب جمال الدين : « نعم تلاقينا هناك » قال عبد الحميد : « قد الحّ الخديو كثيراً بطلب هذه المقابلة ، وما فهمت لهذا الالحاح سبباً أو معنى ، فأيّ علاقة بينكما ؟ وقد ازعجوني بكثرة التقارير ، واكثرها من الصادقين المجربين عندي الذين يتحرون لي صحيح الأخبار وصادقها ، لذلك تأسفت جداً حتى كدت لا أصدق انك تأتي بمثل هذه الأعمال » قال جمال الدين : « واي الأعمال انكرها مولانا السلطان عليّ ؟ » فتناول السلطان عدة ظروف وقال : « هذه كلها على اتفاق بانكما قد انفردتما لوحدكما وتحادثتما بالمسطور فيها » ودفع الى السيد تلك الظروف ، فتناولها ولكنه لم يقرأها ، فكرر السلطان عليه طلبه بمطالعتها ، فقال : « لا حاجة لمطالعتها ، فالأمر ينجلي وينتهي اذا اقتنعتم بانني كنت مع الخديوي في ذلك المكان بمعزل عن الخلق وعلى انفراد

ليس معنا ثالث » قال السلطان : « نعم » قال جمال الدين : « هل كان مع الخديو غير مرافقه ؟ » فاجاب : « لا » قال : « فهل سمع أحد ما دار بيني وبين الخديو وكتب جلالتكم . ام الكاتبون غير من كانوا موجودين ؟ » فاطرق السلطان برهة وقال : « ان حسني باشا مرافق الخديو يذكر انكما انفردتما بعيداً عنه ولم يفهم ما دار بينكما » فقال جمال الدين : « فهل برهان أسطع وحجة أقوى من هذا على بطلان هذه الأرجوفة ، ودحض هذه الفرية ، مع اني أقسم لك بعزة الحق انه لم يدر بيني وبين عباس حلمي خديو مصر شيء من هذا أصلا » عندئذ قال جلالته : « صدقتَ وآمنتُ ، وما هذه الا اختلاقات فلان قهره الله وقبحه » يعني ابا الهدى الصيادي ، على عادته في القاء التفرقة بين مقربيه وايغار صدور بعضهم على بعض !

ولما بلغ التضييق على جمال الدين في الاستانة حده الأقصى ، اعتزم مغادرة البلاد العثمانية ، وكتب الى فيس موريس مستشار سفارة انكلترا ملتمساً منه مساعدته على السفر ، فقدم المستشار إلى زيارته ووعده بتحقيق طلبه . ولكن السلطان ما عتم ان ارسل اليه رسولاً يطلب منه العدول عن رأيه باسم الأسلام لأن عمله هذا يمسّ كرامة خليفة المسلمين ! فتأثر جمال الدين لهذا الطلب ، وأطلع فيس موريس على عزمه على البقاء في الاستانة مهما كانت عاقبة ذلك.

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARY

مجلس الحكيم

•

ظل السيد جمال الدين في الاستانة وظلت المراقبة الشديدة تحصي عليه حركاته وسكناته ، ولكن الحكيم قد خفف على مراقبيه عبء عملهم بالتزامه منزله الذي تحول الى مجلس أدب وعلم ومنتدى لاحرار الفكر وكبار الوطنيين يختلفون اليه من جميع بلدان الشرق فيحدثهم أمتع الحديث ويلقي عليهم ابلغ الحكم ، ويجيبهم على ما يسألونه عنه بصدقه وصراحته وجرأته العظيمة .

من ذلك ان الامير شكيب ارسلان حدثه مرة ان احدى صحف اميركا تحدثت عما يحكى عن اكتشاف العرب تلك القارة واخبره عن بحث له في هذا الموضوع ، فقال :

« لا أريد ان اسرّ المسلمين بكلمة . هؤلاء قوم كلما قال لهم الانسان كونوا بني آدم ، اجابوه ان آباءنا قد كانوا كذا وكذا ، وعاشوا في خيال ما فعل آباؤهم غير مفكرين بأن ما كان عليه اباؤهم من الرفعة لا ينفي ما هم عليه اليوم من الخمول والضعة » .

وقال : « ان الانسان اذا بنى قصراً مستوفياً جميع شروط البهاء والنيقة ، لم يفته فيه شيء من الرفاهة والفراهة ، فهو يفكر حينئذ بأن يأتي الى قصره بالرياش الفلاني النادر من القطر

الفلاني ، ويكمل زينة قصره بالآنية الفلانية التي لا يملكهـا إلا القليلون ، وان يجعل في حديقة القصر هذه الزهرة البديعـة وتلك الريحانة العجيبـة . فأما وهو قصر متداع الى السقوط ، والجص نازل الى الارض ، والسقوف قـد هوت من كل جانب ، وهو لا يقدر على ترميمها ، فهل يخطر بباله ان يأتي لاكمال زينة قصره بهذه الآنية وتلك الزهرة وهاتيك الديباجة ؟ كلا لعمري ، ان من اعوزته الضروريات لا حاجة به الى الكماليات » .

ثم خاطب الامير شكيب بقوله : « انا لا اقول لك لماذا حققت عن قضية جَدّ العرب لاكتشاف أميركا ، ولكنني اقول لك ان الشرقيين قد اصبحوا بهذه المثابة ، وهي انهم كلما ارادوا الاعتذار عما هم فيه من الخمول الحاضر ، قالوا أفلا ترون كيف كان آباؤنا ؟ نعم قد كان آباؤكم رجالاً ، ولكنكم انتم اولئك ما انتم ، فـلا يليق بكم ان تتذكروا مفاخر آبائكم الا ان تفعلوا فعلهم » .

وقال في هذا الموضوع في مجلس آخر : « قد فسدت اخلاق المسلمين الى حد أن لا أمل بأن يصلحوا إلا بأن ينشئوا خلقاً جديداً وجيلاً مستأنفاً ، فحبذا لو لم يبق منهم الا كل من هو دون الثانية عشرة من العمر ، فعند ذلك يتلقون تربية جـديدة تسير بهم في طريق السلام . »

على ان الموضوع الرئيسي الذي كان يستغرق حديثه هو موضوع الاستعمار الذي نذر حياته كلها لمكافحته ، ومن أهم ما تحدث به في هذا الموضوع ، قوله منذ نيّف وخمسين سنة :

« ... ما من دولة غربية تطرق باب مملكة شرقية ، إلا وتكون

حجتها اما حفظ حقوق السلطان ، أو اخماد فتنة قامت على الأمير ، أو انفاذ نصوص الفرامين ، أو غير ذلك من البهتان والختل والخداع وواهي الحجج . فاذا لم تكف تلك الأضاليل للبقاء ، تذرعت اما بحجة حماية المسيحيين ، أو حماية الاقليات ، أو حقوق الاجانب وامتيازاتهم ، أو حرية الشعب ، أو تعليمه أصول الاستقلال ، أو اعطاء الشعب حقه تدريجاً من الحكم الذاتي ، أو اغناء الشعب الفقير بالاشراف على مورد ثروته .. الخ . فالشعب الشرقي الخامل يرى في هذه المواعيد الخلابة ما قاله الشاعر :

ما زال يغدق آلاءً ويشفعها بما يفوق اماني النفس بالعظم

« فيرتاح الى تلك المواعيد ، ويذعن الى جَحْر الغربي ، ويقدم في كل يوم نوعاً من الطاعة ، وشكلاً من الاكرام ، ورضوخاً لاوامر فيها انواع الغرائب ، يتسابقون متهافتين على التعبّد له ولا تهافت الفراش على لهيب النار . يفعلون ما يأمر به الغربي ، ويؤدون كل طلب في بادىء الأمر على مضض يكتمونه ، ويغالطون انفسهم قائلين : انها حالات وقتية ، أو سحابة صيف عن قريب تقشّع . ويرجعون معللين انفسهم بان الغربيين سيفون لهم بوعدهم وينالون تلك الاماني ، اذ يتركونهم بعد اسداء نعمة التعليم لهم : شعباً حراً ، مستقلاً بادارة شؤونه ، مختاراً بوضع ضرائبه عالماً بايراده ومصرفه ، منتقياً من ابنائه حكاماً من انزههم نفساً واحسنهم سيرة وسيراً واصدعهم بالحق قولا وفعلاً .

« هذا ما يتعلل به الشرقي . وأما ما يفعله الغربي فهو برنامج يحمله من بلاده في محفظته ، ثم ينقله الى ذاكرته او حافظته ، مسطور فيه :

« شعب خامل ، جاهل ، متعصب ، اراض خصبة ، معادن كثيرة ، مشاريع كبيرة ، هواء معتدل » : نحن اولى بالتمتع بكل هذا ، وللوصول الى الاستيلاء الممتع ، يضع خطة ، وهي : اولا : اقصاء كل وطني حر يمكنه الجهر بمطالب وطنية . ثانياً : تقريب الأسقط همة ، والأبعد عن المناقشة والمطالبة بالحق . ثالثاً : الدخول على البلاد بتفريقها طوائف وشيعاً ، فتؤثر طائفة على الاخرى ولو بامور خفيفة تافهة ، حتى تستحكم النفرة من بعضهم فيضعون بأسهم بينهم . وكذلك شأنهم في الوظائف ، انهم لا يجعلون الطائفة الواحدة تنازع اختها من الطوائف فقط ، بل يجعلون ابناء بيت واحد ينازع بعضهم بعضاً . وكل هذه حالات تزيد الوصي جرأة ، وتمادياً بالحكم الكيفي ، وغلّ ايدي الشعب ورجاله المخلصين عن النهوض بالوطن والتخلص من ربقة الاستعباد وفك اغلال الحجر .

ثم يقول : « وهذه المطالب ، من فكّ حجر واستقلال وغيرهما ، لا تتم إلا بالأخذ بأفعل العوامل ، مثل ترقية الهيئة بالعلم الصحيح ، والوقوف على مواضع الضعف ، ومعرفة الواجبات لهم أو عليهم ، وكيفية الوصول للمطلب ، والدخول من الأبواب لأخذ حق الضعيف من القويّ . »

فان قيل له ان هذا الرأي على أهميته لا يفي بالغرض المطلوب ، لاسيما وان معظم الشرقيين يتخبطون في ظلمات الجهل ، وقد غُلبوا على أمرهم وكثُر بين ظهرانيهم القوّال وندر الفعّال ، قال ان لدى اهل الشرق دواء سريع التأثير في الشفاء ، لكنه عظيم الخطر ، مفزع للجبناء ، وقد وصفه حكماء العرب بقولهم :

عش عزيزاً أو مت وانت كريم بين طعن القنا وخفق البنود

فان قيل ايضاً ان هذا الدواء بعيد المنال ، وذلك لسقوط الهمم ، وخور العزائم ، وتفرق الكلمة ، والاستسلام للخمول ، وبُعد النفوس في معظم الشرقيين عن مرامي العزة النفسية ، وحرمانهم من لذة ما تنبسط به الروح عند نوال المنعة القومية والحرية الحقيقية ، ولما في عزة الحاكم الفرد من الحول والطول على الجمهور المحكوم المستكين للمهانة والخاضع للقوة الموهومة التي يتخيلها هولا هائلا او غولا آكلا — نصح بتربية جيل جديد على العلم الصحيح ، وقبول الموت في سبيل الوطن ، تقوم بذلك جمعيات يتولى أمرها أناس يأخذون على انفسهم الأبية عهداً ان لا يقرعوا باباً لسلطان ، ولا يضعضعهم الحدثان ، ولا يثني عزمهم الوعيد ، ولا يغرهم الوعد بالمنصب ، ولا تلهيهم التجارة ولا المكسب ، بل يرون في المتاعب والمكاره في سبيل انقاذ الوطن من الاستعباد غاية المغنم .

فان قيل له بعد ذلك : « نعمَ ما وضعت اذا قيّد الله ويسر للامة افراداً يقومون بتلك الغاية الشريفة ، ويكون في نفوسهم ذلك الاباء ، فلا يقرعون معه باباً لسلطان ولا يهرعون لمنصب ، وان هم فعلوا فلا يغفلون عن الوفاء بالوعد ولا ينقضون الميثاق ، ولكن أين هم ؟ أجاب ما معناه : ان الأمة لا بد من ان تنجب هؤلاء الرجال لحاجتها اليهم . وحذّر من اليأس المبيد للعزائم والمغري بالاستكانة أمام العدوان والطغيان ، وأنشد مع الشاعر :

ومهما ادلهم الخطب لا بد ينجلي وأظلمت الدنيا فلا بد من فجر

ومن آرائه الحكيمة في هذا الموضوع أيضاً ان الدولة المستعمرة

اذا رأت البلاد في قبضة سلطان او امين مستبد قد اضعف الأمة وأذلها وفرقها شيعاً ، نازلته وضمنت لنفسها الفوز ، اما بقوة الرجال او بقوة المال او بالمكر والاحتيال . فالدولة المستعمرة لا تبالي بأفراد ولو كانوا سلاطين أو امراء ، ولا بجيوشهم وقوادهم ، وانما الذي تخشاه وتفرق منه ، قيام الامة بوجهها : هذا هو السلاح الوحيد القاطع لحَوْل الاستعمار !

وهو يضرب على ذلك مثل الأفغان فيقول ان الانكليز قد دخلوا بلاد الأفغان بستين الفاً من الجنود المنظمة وتوغلوا فيها ، واستولوا على معاقلها وحصونها ، ولكن لما هبّ الافغانيون من كل صوب وناحية ، وصدموها باسم امة الأفغان لا باسم امير أو سلطان ، اضطرت لترك البلاد وولت الأدبار بعد ان صرفت ثلاثين مليوناً من الجنيهات فضلاً عن دماء رجالها ونخبة من قوادها.

ثم يقول : « أي سلطان كان يمكنه ان يكشف الانكليز عن مستعمرة اميركا لو لم يصدها اتحاد الاميركيين الذين نهضوا باسم الامة الاميركية مستميتين في طلب استقلالهم ؟ نعم ، لما رأت انكلترا ان الامة هي التي تقاومها وتخلع طاعتها ، أكرهت على العمل بدستورها ، وجرت على خطتها بترك البلاد لأهلها . ودهاة الانكليز أعقل من أن يتوهموا امكان افناء امة بأسرها تتفق ، وتستبسل ، وتطلب الموت في سبيل استقلالها . »

وفي حديث آخر يقول ما معناه ان الحق لا بد من ان ينتصر ، مهما لاقى في بدء امره من اضطهاد ومقاومة ، ويضرب على ذلك مَثلَ مئات الملايين من الخلق التي تدين اليوم بتعاليم الانبياء الثلاثة

موسى وعيسى ومحمد ، بعد ان كانت اتباعهم شراذم بل افراداً قلائل . ويقول « ولو لم تكن تعاليمهم محض خير ، وموافقة لروح البشر والانسانية ، لما أخذ التكاثر من تابعيهم رغم مقاومة المجموع ، ورغم الاضطهاد والقتل والاستهزاء والنفي والصلب ، وكل انواع العذاب ، حتى صاروا أمماً وفتحوا ممالك ، وصار لاولئك الافراد والشراذم دول ، وجانب يخشى ، وبأس يُتقى ، ومدنية ، وحضارة لا تفنى » .

ويخلص الى التأكيد بأن كل تعليم اذا كان حقاً في ذاته ، ولو خالف المألوف وكان أنصاره قلائل ، فمن الحكمة ، أن لا يُمتهن لقلة الاشياع والنصراء ، او لكثرة جماهير المخالفين والمقاومين له في بادىء الأمر ، بل يجب ان يُنظر اليه بعين البحث والنقد الصحيحين . وبعد أن يعدد ما لاقاه المسيح ، وما لاقاه محمد ، وما لاقاه رجال الثورة الفرنسية من اضطهاد مريع عنيف ، ثم انتصرت مبادؤهم ، واضحى العالم في اكثره يدين بها ويقدسها ، يقول : « وهكذا دعوى الاشتراكية على ما سبق ذكره وبيانه ، وان قل نصراؤها اليوم ، فلا بد ان تسود في العالم ، يوم يعم فيه العلم الصحيح ، ويعرف الانسان انه واخاه من طين واحد ، أو نسمة واحدة ، وان التفاضل انما يكون بالأنفع من المسعى للمجموع ، وليس بتاج ، او نتاج ، او مال يدّخره ، أو كثرة خدم يستعبدها او جيوش يحشدها . وغير ذلك من عمل باطل ، ومجد زائل ، وسيرة تبقى معرّة لآخر الدهر . »

وعلى الجملة ، ان تعاليم الحكيم ، كانت في مجلسه ، كما كانت في

خطبه ونتاجه ، حكماً رشيدة تحمل الحامل على العظائم ، والجبان على الجرأة النادرة ، وتلقن مبادىء الحرية المقدسة والوطنية الصحيحة ، وتنير الطريق امام الشرقيين الى مجالي الاستقلال والرقي والحياة العزيزة الكريمة .

وقد ظلّ دائباً على هذه السيرة المهدية الهادية حتى سنة ١٨٩٧ (١٣١٣هـ) اذ ظهر في حنكه مرض السرطان او ما يشبه السرطان واشتد عليه ، فامر السلطان قنبور زاده اسكندر باشا كبير جراحي القصر وأحد المقربين من عبد الحميد ان يجري له عملية جراحية ، ولكن العملية لم تنجح ، وظل المرض يسري في فكيه ويضرب في جميع جسده ، حتى وافاه الاجل في التاسع من آذار من تلك السنة .

وتقوّل الناس الأقاويل في مرض السيد جمال الدين ووفاته ، فقيل ان قنبور زاده قد اساء علاجه بأمر السلطان . وتحدث المستشرق لاون استرورغ الى الامير شكيب ارسلان بان السيد جمال دعاه بعد اجراء العملية الجراحية ، فرأى ان حاله بعدها قد ازدادت شدة ، ورجا منه ان يُرسل اليه جراحاً فرنسياً حر الفكر طاهر الذمة ليفحصه ، فارسل اليه الدكتور لاردي فوجد ان العملية لم تجر على وجهها الصحيح ، ولم تعقبها التطهيرات اللازمة ، وان المريض قد هلك بسبب ذلك .

وروى الامير شكيب أيضاً ان أحد موظفي قصر عبد الحميد قد انبأه بان قنبور زاده كان اطهر واشرف من ان يرتكب مثل تلك الدناءة ، ولكن طبيباً للأسنان يدعى جارح كان يتردد على السيد

ويفحص له اسنانه ، وقد استمالته نظارة الضابطة بالمال ، وجعلته جاسوساً عليه ، فصار له عـــدواً في ثوب صديق . قال الرجل : « فاردت مرة ان امنع جارحاً من الاختلاط بجمال الدين ، فأشار اليّ ناظر الضابطة اشارة خفيـة بان اتركه ، وفهمت من الاشارة انه يذهب الى هناك ، ويطبب اسنان السيد بعـــلم من النظارة ، والسيد لا يعلم شيئاً من ذلك ويستخلص جارحاً ويثق به . فلا اعلم ماذا فعل جارح بواسطة طبه وثقة جمال الدين به . وقصارى ما اعلم انه لم تمض عدة اشهر على حادث الشاه حتى ظهر السرطان في فك السيد من الداخل ، واجريت له عملية جراحية فلم تنجح ، وجارح هذا كان ملازماً له . وبعد موت السيد كنا نرى جارحاً حزيناً كئيباً ، كاسف البال ، واجم الوجه ، مما جعلنا نشتبه بان يكون ذا يدٍ في افساد الجرح بعد العملية أو في توليـــد المرض نفسه من قبل ، بوسيلة من الوسائل » .

وليس يستطيع أحد الجزم بصحة واحد من هذه المزاعم !

وقد أمر السلطان عبـد الحميد بان يدفن جمال الدين الافغاني في غير احتفال ، وان تصادر اوراقه وتركته ، واصدر أمراً سلطانياً الى الصحف في البـلاد التابعة للدولة العثمانية بألا تكتب في شأنه شيئاً ، وصادر ولاته في سوريا جميع الصحف المصرية التي رثت وأبنت ذلك المنبـــه الأول لكثير من حركات التحرر الوطني والاصلاح الدستوري في بلاد الشرق .

ودفن الحكيم في مقبرة مجهولة بالقرب من نشان طامش ، ولم يشيع نعشه إلا ثلاثة من اصدقائه هم سهل باشا بن فضل باشا وعلي

قبودان المصري وجرجي افندي كوتجه صديقه الامين الذي انفق عليه في ايامه الاخيرة وكان الى جانبه في ساعات احتضاره . وظلّ مدفنه مجهولا منسياً ما يقارب الثلاثين سنة، حتى اهتدى اليه صديقه المستشرق الاميركي المستر كراين في سنة ١٩٢٦ بعد جهد كبير ، فبنى له ضريحاً من الرخام واحاطه بسور من حديد وكتب على احد وجوهه اسم السيد وتاريخ ولادته ووفاته ، وكتب على وجه آخر : « أنشأ هذا المزار الصديق الحميم للمسلمين في انحاء العالم ، الخيّر الأميركي المستر شارلس كراين سنة ١٩٢٦ » . وفي اوائل شهر كانون الاول ١٩٤٤ (١٣٦٣ هـ) ، بعد مرور خمسين سنة هجرية على وفاة الحكيم ، نقل رفاته في احتفال عظيم الى بلاد الأفغان .

كلمات مختارة لجمال الدين الأفغاني

•

ساقط الهمة من علم موقع الفضيلة وصدق الدعوة ولم يبادر اليهما.

علم قليل مفيد في الصدور يُعملُ به ، خيرٌ من علوم كثيرة في الكتب مسطورة ولكن لا يُعمل بها .

من رهب الملوك لغير جريرة فهو الصعلوك .

كثرة النصراء لداع أو لدعوة عن غير علم منهم بصحة الدعوة ، قلةٌ ومذلة ، وقليل من النصراء لدعوة عن علم ، مكانة واستطالة .

أعظم دليل على كبر الهمة مجاهرة المرء بمخالفته المألوف إذا تحقق بطلانه .

امة تطعن حاكمها سراً وتعبده جهراً لا تستحق الحياة .

يكفر الأنسان في كل شيء لا يرضاه ، ويعبد كل شيء يهواه .

إذا لم تنصف الحكومة القضاة ، فاحرى بها أن تجعل الذئاب رعاة المعوجّ الظاهر منْ الناس ، أقل ضرراً من المتلبس بالاستقامة.

كل مستحيل اليوم سيكون غداً ممكناً .

الاستقلال أمل يتبعه عمل ، وحمل النفس على المكاره ، واقتحام المهالك والمصاعب .

حمال الحطب للاتجار انفع من حمال الذهب للادخار .

اقرب موارد العدل القياس على النفس .

احقر الناس من يطلب موت الناس ليحيا .

مراجع الكتاب

•

محمد رشيد رضا : تاريخ الاستاذ الأمام محمد عبده ، الجزء الأول، وهو يضم ما كتبه عن جمال الدين الافغاني كل من محمد عبده ، واديب اسحق ، وسليم العنجوري ، وابراهيم اليازجي ، ورشيد رضا . والجزء الثاني ، وهو يضم اهم فصول « العروة الوثقى ».

محمد باشا المخزومي : خاطرات جمال الدين الافغاني الحسيني .

احمد امين : فيض الخاطر ، الجزءان الرابع والخامس .

محمد سلام مدكور : جمال الدين الافغاني باعث النهضة الفكرية في الشرق .

الامير شكيب ارسلان : تعليقه على « حاضر العالم الاسلامي » .

جرجي زيدان : تراجم مشاهير الشرق ، الجزء الثاني .

فيليب طرازي : تاريخ الصحافة العربية ، الجزء الثاني .

عبد الرحمن الرافعي : الثورة العرابية .

عبد المحسن القصاب : ذكرى الافغاني في العراق .

•

مصطفى عبدالرازق : السيد جمال الافغاني، السياسة الاسبوعية، السنة ١٩٢٧ ، العدد ٦٥ والثقافة ، المجلد ٦ العدد ٢٧٠ .

الدكتور شبلي الشميل : جمال الدين الافغـــاني ، الزهور ، المجلد ٣ ص ٤١١ .

عثمان أمين : جمال الدين الافغاني ، الكتاب ، م ١ ص ٦٨٧ .

رئيف خوري : جمال الدين الافغاني ، بذرة ثورة ، الطليعة ، المجلد الأول ، الاعداد ٤ — ٨ .

عبد الجبار خلف العبيدي : السيد جمال الدين الافغاني ، مجلة « الرابطة » العراقية ، المجلد الاول ، ص ٣٧٢ .

ذو النون ايوب : جمال الدين الافغاني ، مجلة « المجلة » العراقية ، المجلد الخامس ، العدد ١٤ .

عبد الكريم الدجيلي : السيد جمال الدين كما اعرفه ، جريدة « الرأي العام » العراقية ، العدد ١١٧٥ ، السنة ١٩٤٤

محمود شبلي : ذكرى جمال الدين ، الرسالة ، م ١١ ، عدد ٥٠٦

عبد المنعم حمادة : جمال الدين الافغاني ، نبذة من حياتـه ، الثقافة ، المجلد الاول ، العدد ١٣

عبد المنعم حمادة : جمال الدين ومحمد عبده ، الثقـــافة ، المجلد الثالث ، العدد ١١٦

عبد المنعم خلاف : الى سر السيد جمـال الدين ، الرسالة ، المجلد ٦ ص ٤٠٩

محمد فهمي عبد اللطيف : السيد جمال الدين الافغاني استاذ الوحدة الاسلامية ، الرسالة ، المجلد ١٣ ، ص ٢٣٧ و ٢٩٠ و ٤٢٠

فهرست

رسول حق ونور	٥
دعوة الى الاصلاح والتجديد في الدين	٩
مشعل كفاح وتحرّر وطني	١٧
نشأة حكيم	٢٣
فجر النهضة المصرية	٣٥
شرارات ثورة	٤٣
شرقي في بلاد الغرب	٥٥
العروة الوثقى	٦٥
حكيم مصلح وأمير مستبد	٧٩
في بلاط عبد الحميد	٩٢
مجلس الحكيم	٩٩
كلمات مختارة لجمال الدين الافغاني	١٠٩
مراجع الكتاب	١١٠

٦٨ - ٣ - ٤٧

LIBRARY

DATE DUE

A.U.B. LIBRARY

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
00502669